المختصر المفيد لكتاب

"إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد"

اختصار وتهذيب
علي بن محمد

عمّان - الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدِ، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد، فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هديُ محمد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل محدثةٍ بِدعة وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالة في النار وبعد.

فهذا مختصر شرح كتاب التوحيد للشيخ صالح بن فوزان الفوزان المسمى "إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد" لمؤلفه العلاّمة المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

كتاب التوحيد

وقول الله تعالى:{**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**} [الذاريات:56]**.** وقوله: {**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ**}[النحل:36]. وقوله**:** {**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**} [الإسراء: 23]. وقوله: {**وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا**} [النساء:36]. وقوله: {**قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا**} [الأنعام: 151].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: {**قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا**} [الأنعام:151] إلى قوله: **}وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا**} [الأنعام:153].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: "كنتُ رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: "**يا معاذ أتدري ما حقّ الله على العباد وما حقّ العباد على الله قلت: "الله ورسوله أعلم"، قال: "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب مَن لا يشرك به شيئاً" قلت: "يا رسول الله أفلا أبشّر الناس" قال: "لا تبشرهم فيتكلوا**". (أخرجاه في الصحيحيْن).

الشرح:

بدأ رحمه الله بالبسملة، قال ﷺ: "**كل أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر**"[1]، أي: ناقص البركة.

ثم قال كتاب التوحيد ومعناه إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة والتوحيد ثلاثة أنواع:

الأول: توحيد الربوبية: وهو إفراد الله تعالى بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة وتدبير الخلائق، يعني أنه لا خالق ولا رازق ولا مدبّر ولا محيي ولا مميت ولا ضار ولا نافع إلا الله تعالى.

ومن أقر بهذا النوع من التوحيد وحده لا يكون مسلماً لأنه قد أقرّ به الكفار، قال تعالى: {**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**} [العنكبوت:61]، إلا أنهم لم يؤمنوا بالنوع الثاني من التوحيد وهو:

النوع الثاني: توحيد الألوهية، ومعناه: إفراد الله بالعبادة: يعني لا يُعبد مع الله أحداً يعبده وحده لا شريك له.

يعني يصلي لله ولا يصلي لأحدٍ غيره ويسبح لله وينذر لله ويحج لله ويتصدق لله ويتوكل على الله ويستعين بالله ويستغيث بالله ويدعو الله ويخاف من الله ولا يشرك معه أحداً.

قال تعالى: {**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**} [الذاريات:56].

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهذا يعني أن نثبت لله ما أثبته لنفسه وأثبتَه له رسول الله ﷺ من الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.

نثبت لله السمع وهي صفة فعل، ونثبت له صفة الوجه وهي صفة ذات، ونؤمن أن هذه الأسماء وهذه الصفات لا تشابه أسماء وصفات المخلوقات لقوله تعالى:

---

[1] الحديث ضعيف جداً بهذا اللفظ، انظر الإرواء رقم (1 / 29).

{**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**} [الشورى: 11] ونؤمن أن هذه الأسماء حُسنى يعني بلغت منتهى الحُسن والكمال وأن هذه الصفات عُليا يعني بلغت منتهى العلوّ والكمال.

قال رحمه الله (محمد بن الوهاب) في باب كتاب التوحيد قول الله تعالى: {**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**} [الذاريات: 56]. واستدل الشيخ رحمه الله بهذه الآية على الباب فمعناها توحيد الله بالعبادة وهو باب التوحيد.

وقوله تعالى: {**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ**} [النحل:36]، فالله بعث الرسل جميعاً بهذه الرسالة: عبادة الله واجتناب عبادة غيره (الطاغوت) لأن كل ما عُبد من دون الله فهو طاغوت. سواءً كانت أصناماً أو قبوراً أو أضرحة أو غير ذلك. أما ما عُبد من دون الله ولم يرضَ بذلك لا يُسمى طاغوتاً مثل عيسى عليه السلام. إذاً فرسالة الرسل هي الدعوة إلى عبادة الله والنهي عن الشرك فملتهم عليهم السلام واحدة وإن اختلفت شرائعهم.
والعبادة لا تصحّ إلا بشرطيْن:

- **الشرط الأول:** الإخلاص لله عز وجل.
- **الشرط الثاني:** المتابعة للرسول ﷺ.

فلو أن الإنسان جاء بعبادات محدثة ليس فيها شركٌ لله أبداً كلها خالصة لله فهي مردودة لا تصل لأنها تنافي الإتباع للرسول ﷺ حيث يقول عليه الصلاة والسلام: "من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد".

ولو عبد إنسان ربه متابعاً للنبي بفعله ولكنه أراد غير وجه الله بهذه العبادة أو هذا العمل فإنه لا يُقبل منه لأنه ينافي الإخلاص لله وهو الشرط الأول، ودليل هذيْن الشرطيْن من كتاب الله.

قوله تعالى: {**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**} [الكهف: 110].

فالعمل الصالح: ما وافق هدي النبي يعني المتابعة له عليه الصلاة والسلام، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً يعني الإخلاص لله تعالى.

الباب الثاني
باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى: {**الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**} [الأنعام:82].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله : "**من شهد لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**" (أخرجاه في الصحيحيْن).

ولهما في حديث عِتبان: "**فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي وجه الله**".

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله قال: "قال **موسى يا رب علمني شيئاً أذكرك به قال قل يا موسى لا إله إلا الله قال يا رب كل عبادك يقولون هذا قال يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهنّ لا إله إلا الله**" (رواه ابن حبان والحاكم وصححه)[2].

وللترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه سمعتُ رسول الله يقول: "قال الله تعالى يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتُك بقرابها مغفرة".

الشرح:

مناسبة هذا الباب والذي قبله مناسبة ظاهرة فإنه - رحمه الله – لما بيّن في الباب الأول حقيقة التوحيد، ومعناه المطلوب موضحاً ذلك بالآيات والأحاديث ناسب

---

[2] الحديث فيه ضعف، ولكن بمعناه أحاديث كثيرة، انظر: "ضعيف الترغيب والترهيب" رقم (923).

أن يذكر فضله ليرغب فيه وهو تصنيف في غاية الحكمة مما يدل على دقة فهم الشيخ رحمه الله.

وقال رحمه الله: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**" (متفق عليه).

قوله: من شهد أن لا إله إلا الله يعني نطق بالشهادة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، فإنه لا يكفي التلفظ بالشهادة من غير معرفة لمعناها، أو النطق بها مع المعرفة لمعناها ولكن لا يعمل بمقتضاها.

فهذا المنافق ينطق بها بلسانه إلا أنه لا يعتقدها بقلبه فهو في الدرك الأسفل من النار ولم ينفعه مجرد النطق بها. وكذلك عبّاد القبور اليوم يقولون: لا إله إلا الله بألسنتهم، لكنهم لا يعملون بمقتضاها بل يعبدون القبور والأضرحة ويدعون الأولياء والصالحين من دون الله فخالفوا معنى لا إله إلا الله مع أنهم يتلفظون بها، فالمشركون جحدوا اللفظ والمعنى والقبوريون أقروا اللفظ وجحدوا المعنى، فهم سواء.

الحاصل أن لا إله إلا الله كلمة عظيمة لها شروط:

- النُطق بها.
- العلم بمعناها.
- العمل بمقتضاها أي بلازمها.

ومعناها هو: نفي العبادة إلا لله يعني إبطال عبادة كل ما سوى الله وإثبات العبادة لله وحده فلا معبود بحق إلا الله.

وقوله: وأن محمداً عبده ورسوله: هذا نفي للإفراط والتفريط فهو عبدٌ عليه الصلاة والسلام فلا يجوز الإفراط و الغلوّ في حق النبي ﷺ بجعل شيءٍ له من الربوبية فهو عبدٌ عليه الصلاة والسلام ورسولٌ لا يُكذّب بل يُطاع ويُتبع. قال النبي ﷺ: "لا تطروني كما أطرت

النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله".

وقوله ورسوله: "هو ردٌ على أهل التفريط الذين لا يقدرون الرسول حق قَدْرِه فإما يجحدون رسالته ﷺ أو لا يتبعونه الاتباع المطلوب فلا يجوز مخالفته ﷺ بشيءٍ مما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام، فلا إفراط ولا تفريط.

فقوله ﷺ: "من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله هذا فيه البراءة من دين المشركين".

وفي قوله: {**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**} [النساء: 171] فيه براءة من دين اليهود والنصارى، لأن اليهود كفروا بعيسى عليه السلام والنصارى غلوا في عيسى عليه السلام فجعلوه رباً، والشاهد في هذا الحديث للباب: باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، أن الرسول ﷺ قال في آخره: "أدخله الله الجنة على ما كان من العمل"، فأهل التوحيد يدخلون الجنة.

لكن ما معنى على ما كان من العمل؟

في ذلك قولان لأهل العلم:

الأول: يعني لو كان له سيئات دون الشرك لا يحول دون دخوله الجنة، إمّا من البداية أو في النهاية، فهو يَمنع من الخلود في النار.

الثاني: يعني أنه يدخل الجنة فتكون منزلته بحسب عمله.

وقال رحمه الله: ولهما في حديث عِتبان: "فإن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله".

قوله: "يبتغي بذلك وجه الله دلّ على الإخلاص وأنه لم يقلها رياءً ولا سُمعةً ولا نفاقاً. بل يعتقد ما دلت عليه من إفراد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه، واعتقاد بطلان عبادة ما سوى الله، والبراءة منها ومن أهلها. فدلّ الحديث على أنه لا يكفي مجرد النُطق بلا إله إلا الله من غير معرفةٍ لمعناها وعملٍ بمقتضاها واعتقادٍ لمدلولها.

وقوله: وعامرهنّ غيري دلّ على أن الله سبحانه وتعالى في السماء كما أجابت بذلك الجارية في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه حين سألها النبي حيث قال لها: "أين الله؟" قالت: "في السماء".

وقال تعالى: {**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ** }[الملك:16].

وقوله: "يا ابن آدم! لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، يعني ملؤها أو ما يقاربه". وقوله: "لأتيتُك بقُرابها مغفرة فيه: أن مغفرة الذنوب مشروطة بتجنب الشرك، وفيه فضل التوحيد، وفيه الرد على الخوارج الذين يكفّرون بالكبائر، وفيه سعة فضل الله عز وجل ورحمته".

وبالله التوفيق

الباب الثالث
باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل:120] وقال تعالى: {وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ} [المؤمنون:59]

عن حصين بن عبد الرحمن قال: "كنتُ عند سعيد بن جبير فقال أيّكم رأى الكوكب الذي انقضّ البارحة فقلت أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة ولكن لدغت قال: فما صنعت قلت: ارتقيت، قال: فما حملك على ذلك.

قلت: حديث حدثناه الشعبي قال وما حدثكم قلت حدثنا عن بُريده بن الحصيب أنه قال: "لا رقية إلا من عين أو حمة" قال قد أحسن من انتهى إلى ما سمع.

ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي أنه قال:

"عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سوادٌ عظيمٌ فظننتُ أنهم أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيمٌ فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله فأخبروه فقال هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم قال أنت منهم ثم قام

رجل آخر فقال ادعُ الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة".

الشرح:

لما ذكر الشيخ – رحمه الله – في الباب الأول معنى التوحيد وحقيقته من الكتاب والسنة، وليس من كلام البشر الذين ألّفوا في العقائد مثل: المعتزلة، والأشاعرة، وعلماء الكلام.

ثم ذكر في الباب الثاني فضل هذا التوحيد الموضح معناه من الكتاب والسنة وما يكفّر من الذنوب جاء هذا الباب (من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب). **وتحقيق التوحيد يعني:** تصفيته من الشرك والبدَع والذنوب.

أما الفرق بين باب فضل التوحيد وباب من حقق التوحيد فهو: أن باب فضل التوحيد في حق الموحّد الذي ليس عنده شرك، ولكن قد يكون عنده بعض المعاصي التي تُكفّر بالتوحيد.

أما باب من حقق التوحيد فهو بحق من لم يشرك بالله شيئاً ولم يكن عنده شيء من المعاصي، وهذا أعلى من الذي قبله.

وقوله: {**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**}**،** فهذه أربع صفات وصفها الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام وهي:

الأولى: أنه كان أمة، يعني: قدوة في الخير.

الثانية: أنه كان قانتاً لله يعني ثابتاً على الطاعة مخلصاً عمله لله.

الثالثة: أنه كان حنيفاً، يعني مُقبلاً على الله مُعرضاً عما سواه.

الرابعة: أنه لم يكُ من المشركين أي: بريء منهم ومن دينهم.

وهذا هو تحقيق التوحيد بهذه الأربع وأعظمها: البراءة من المشركين ولو كان أقرب الناس فإبراهيم عليه السلام تبرأ من أبيه.

ثم قال الشيخ رحمه الله:

"وقال: الذين هم بربهم لا يشركون"، وهذا هو تحقيق التوحيد: لا يشركون أبداً شركاً أصغر ولا شركاً أكبر يعني: لا يقع منهم شرك وسلموا من أنواعه الأصغر والأكبر والخفي والجلي ومن البِدع والمخالفات.

وقال الشيخ رحمه الله:

عن حصين بن عبد الله قال: كنتُ عند سعيد بن جبير، فقال: "أيكم رأى الكوكب الذي انقضّ البارحة؟ قلتُ: أنا! ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة ولكن لدغتُ. قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيتُ. قال فما حملك على ذلك؟ قلتُ: حديث حدّثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدّثنا عن بُريدة بن الحصيب أنه قال: "لا رُقية إلا من عينٍ أو حُمة"ـ قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدّثنا ابن عباس، عن النبي أنه قال: "عُرضت عليّ الأمم، فرأيتُ النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد. إذ رُفع لي سوادٌ عظيم، فظننتُ أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب". ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلّهم الذين صحبوا رسول الله وقال بعضهم: فلعلّهم الذين وُلدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياءً فخرج عليهم رسول الله فأخبروه، فقال: "**هم الذين لا يَسْتَرْقون ولا يكتوون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكّلون**". فقام عكّاشة بن محصن، فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: "أنت منهم".

هذا الحديث عظيم دلّ على مسائل:

أولاً: جواز الرّقية من العين ومن الحُمة وغيرهما.

ثانياً: دلّ على فضل موسى عليه السلام وأمته الذين آمنوا معه.

ثالثاً: فيه دليل على عدم الاحتجاج بالكثرة.

فالنبي يأتي يوم القيامة وليس معه أحد، هذا لا يعني أنه ليس على الحق حاشا لله فهو وحده يجيء وليس معه أحد يوم القيامة.

رابعاً: فيه حرص الصحابة على مسائل العلم ومعرفتها.

خامساً: فيه كراهية سؤال الناس وأن سؤالهم فيه تنقيص للتوحيد والاستغناء عن الناس فيه كمال التوحيد وهو من تحقيق التوحيد (ذلك من قوله لا يسترقون ولا يكتوون).

سادساً: فيه دليل على استعمال المعاريض في الأمور التي يُكره مواجهة الناس بها فقال عليه الصلاة والسلام للآخر: "سبقك بها عكاشة" ولم يقل عليه الصلاة والسلام أنت لا تستحق هذا، أو أنه قال أنت لا تصل هذه المرتبة.. إلخ.

سابعاً: فيه دليل على طلب الدليل ووقوف الصحابة والتابعين رضي الله عنهم عند الدليل وقبوله وفيه الدليل القاطع على الاتباع لقول سعيد بن جبير لحصين: "قد أحسن من انتهى إلى ما سمع".

ثامناً: فيه دليل لما ترجم له المصنف رحمه الله أن من حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

الباب الرابع
الخوف من الشرك

وقول الله تعالى: {**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء** }[النساء:48].

وقال الخليل عليه السلام: {**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ**}.

وفي الحديث قال: "أخوفُ ما أخافُ عليكم الشرك الأصغر، فسُئل عنه: فقال: الرياء".

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "**من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار**" (رواه البخاري).

ولمسلم عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: "**من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار**".

الشرح:

هذا الباب في غاية المناسبة للأبواب السابقة، وهذا من دقة فقه الشيخ وفهمه رحمه الله، فقد ذكر في الأبواب السابقة الترتيب التالي معرفة حقيقة التوحيد ثم ذكر فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، ثم ذكر من حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، ثم ناسب بعد هذه الأبواب أن يذكر ضد التوحيد وهو الشرك، لأنه لا يكفي أن يعرف الإنسان التوحيد ويعمل به، بل لا بد أن يعرف ضده وهو الشرك خشية أن يقع فيه ويفسد عليه توحيده كما قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشرّ ولكن لتوقيه ... ومـن لا يعرف الشـرّ يقع فيـه

وقال أيضاً:

والضدّ يظهر حسنه الضدّ ... وبضدّها تتبيّن الأشياءُ

ومن هنا يتبين خطأ الذين يقولون: لا داعي أن نتعلم العقائد الباطلة علموا الناس التوحيد ويكفي.

والموحد يجب أن يخاف من الشرك ولا يجب أن يزكي نفسه ويقول أنا موحِّد، وقد عرفت التوحيد ولا يمكن أن أقع في الشرك فهو إغراءٌ من الشيطان، فإن إبراهيم عليه السلام على علوّ منزلته وهو الخليل عليه السلام خاف من الشرك فدعا ربه "واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام". وقول الله عز وجل: {**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء**}**.**

فهذا فيه خطورة الشرك، فالله لا يغفر للمشرك مع أن رحمته وسِعت كل شيء، فمن مات على الشرك فإنه لا يغفر له وكل الذنوب مظنة المغفرة إلا الشرك. ولا يمكن تجنبه إلا إذا عُرف وعُرف خطره.

وقد أخبر الله تعالى بالآية**:** {**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** }[المائدة: 72].

فيما تقدم أبلغ الرد على الذين يقولون: لا خوف على المسلمين من الشرك بعدما تعلموا وتثقفوا ويركزون على الخوف من شرك الحاكمية، وأما الشرك في الألوهية والعبادة فلا يهتمون به وبإنكاره مع أن الخليل عليه السلام خاف منه ودعا الله أن لا يقع فيه.

وفي الحديث: "أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، سُئل عنه النبي فقال هو **الرياء**، **والرياء:** لما يُرى من الأعمال".

والسمعة: لما يُسمع منها. وقد خافه النبي على أصحابه فكيف على غيرهم.

قال: "وعن أبي مسعود رضي الله عنه أن النبي ، قال: من مات وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار".

هذا خبر من النبي : "أن منْ ماتَ على الشرك فهو من أهل النار، ولا يغفر له، وكلمة شيئاً تعم الشرك كله. كل ما أشرك مع الله من نبي أو وليّ أو ملك".

نسأل الله العافية من الشرك

الباب الخامس
باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى:{**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ**}[يوسف:108].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: "إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة. فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" (أخرجاه).

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه:

أن رسول الله قال يوم خيبر: "لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه". فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يُعطاها. فلما أصبحوا غدوا على رسول الله كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: "أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يشتكي عينيْه، فأرسلوا إليه. فأتي به، فبصق في عينيْه ودعا له، فبرأ كأنْ لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خيرٌ لك من حُمرِ النّعم" يدوكون: أي يخوضون.

الشرح:

قال المؤلف رحمه الله: "باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله" مناسبة هذا الباب لما قبله من الأبواب ظاهرة جداً فإنه لما ذكر في:

الباب الأول: معرفة التوحيد.

الباب الثاني: فضل التوحيد.
الباب الثالث: فضل من حقق التوحيد.
الباب الرابع: ما يضاد التوحيد وهو الشرك.

فإذا ألمّ طالب العلم بهذه الأبواب وعرفها معرفةً جيدة فإنه تأهل حينئذٍ للدعوة إلى الله عز وجل. فإنه لا يجوز للإنسان إذا علم شيئاً من هذا العلم الشريف أن يختزنه في صدره، فلا بد من نشره والدعوة إليه فإن هذه الأمة أمة الدعوة كما قال تعالى: {**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ**} [آل عمران:110].

وقال تعالى: {**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**} [آل عمران:104].

فلا يجوز للمسلم الذي عرف شيئاً من العلم أن يكتمه وهو يرى الناس في حاجة إليه، خصوصاً علم التوحيد وعلم العقيدة. واللذان لا نجاة للإنسان إلا بمعرفتها وفهمها فهماً جيداً ليكون من الموحدين المحققين للتوحيد والبعيدين السالمين من الشرك.

فقوله: "باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله" يعني الدعوة.

وقال رحمه الله تعالى:

وقول الله تعالى: {**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**}[يوسف: 108]. يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً أن يُعلن للناس عن بيان منهجه ومنهج أتباعه في الدعوة وهو: الدعوة إلى الله على بصيرة، فدل على أن من لم يدعُ على بصيرة فإنه لم يحقق اتباع النبي .

قوله: {**أَدْعُو إِلَى اللّهِ**} قال الشيخ رحمه الله: "فيه التنبيه على الإخلاص، فإن بعض الناس إنما يدعو إلى نفسه".

فقد يكون الإنسان يدعو ويحاضر ويخطب، لكن قصده من ذلك أن يتبين شأنه عند الناس فيصبح له مكانه ويمدحه الناس على ذلك ويتجمهرون إليه ويكثرون حوله، فإذا كان هذا هو قصده فهو لا يدعو إلى الله وإنما يدعو إلى نفسه وهذا محظور عظيم. فيجب على الإنسان الذي علم أن يدعو، وإذا دعا أن يخلص لله فيدعو إلى الله لا يدعو إلى نفسه. فيكون قصده من الدعوة إقامة شرع الله وهداية الناس ونفعهم سواءً مدحوه أو ذمّوه فبعض الدعاة إذا لم يمدح ويشجع ترك الدعوة وذلك دليل على أنه لا يدعو إلى الله وإنما يدعو إلى نفسه.

فليتنبّه الإنسان الداعي إلى الله أن يقصد بدعوته رضى الله مخلصاً له ونفع الناس وتخليصهم من الشرك ومن البِدع والمخالفات ولينتبه أن الكثرة حول الشخص لا تدل على فضله فكما مرّ معنا فإن النبي يأتي يوم القيامة وليس معه أحد، فهل يدل ذلك على عدم فضل هذا النبي؟ لا حاشا وكلا.

وقوله: {**أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ**}، **البصيرة معناها:** العلم، بل هي أعلى درجات العلم وفي هذا دليل على أنه يشترط في الداعية أن يكون متزوّداً بالعلم قبل أن يشرع في الدعوة، فإنّ فاقد الشيء لا يعطيه ولأنه في دعوته قد يتعرض إلى شبهات ومناظرات وجدال خصوصاً إذا دعا غير المسلمين، قال تعالى: {**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**} [النحل:125]، **بالحكمة:** يعني بالعلم، وجادلهم فيه دليل على أن الداعية معرَّض للجدال فكيف يجادل بدون علم؟!

وقوله: {**أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي** }أي: وأتباعي يدعون إلى الله على بصيرة، فدل على أن من لم يدعُ إلى الله لم يحقق اتباع الرسول ﷺ، وأن من دعا إلى الله تعالى على جهلٍ لم يحقق اتباع الرسول ﷺ، بل إنه أدخل نفسه فيما ليس من شأنه، وصار خطراً على الدعوة، وعلى الدعاة.

ثم قال: "وسبحان الله" سبحان: اسم مصدر مِن سبّح بمعنى: نزّه الله عما لا يليق به من الشرك والقول عليه سبحانه وتعالى بلا علم.

فإن الله تعالى ينزَّه عن الشرك، ويُنزَّه عن القول عليه بلا علم، فهذا فيه وجوب تنزيه الله تعالى عن النقائص، وأعظمها: الشرك.

وقوله: {**وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**}، هذه براءة من الرسول من المشركين كما تبرأ منهم إبراهيم عليه السلام، ففيه وجوب البراءة من المشركين يعني: قطع المحبة والمودة والمناصرة بينك وبين المشركين، لأنهم أعداء الله وأعداء رسوله. فهذا أصل من أصول الدعوة، أما الداعية الذي لا يتبرأ من المشركين فهذا ليس بداعية، وليس على طريق رسول الله ، وإن زعم أنه يدعو إلى الله وعلى طريق رسول الله .

بل إن الكفر بالطاغوت مقدّم على الإيمان بالله كما قال تعالى:{**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ**}[البقرة:256]، فلا بد من البراءة من المشركين.وقوله: "وبعث معاذاً إلى اليمن" يعني أرسل معاذاً إلى القطر المعروف جنوب الجزيرة ويسمى اليمن لأنه يقع أيمن الكعبة كما أن الشام سمي الشام لأنه يقع شاميّ الكعبة.

وهذا فيه مشروعية إرسال الدعاة للدعوة إلى الله عز وجل، وأنه سنة نبوية، وفيه أنه لا يُرسل للدعوة أيّ أحد، فإرسال النبي معاذاً فيه أولاً فضيلة معاذ رضي الله عنه وعلمه لأن الرسول لا يرسل للدعوة إلا من توفّرت فيه الشروط المطلوبة، وقد توفرت بمعاذ رضي الله عنه وكان أعلم الناس بالحلال والحرام.

وفيه أيضاً العمل بخبر الواحد، لأن الرسول أرسل معاذاً وحده ولا يشترط التواتر في بيان أمور العقيدة كما يقوله كثير من الجهّال، ما كان الرسول يرسل جماعات إنما كان يرسل أفراداً كما بعث علياً رضي الله عنه وبعث أبو عبيدة ابن الجرّاح.

وقوله: "قال له: إنك تأتي قوماً أهل كتاب". يعني من اليهود والنصارى، وقصد النبي ﷺ من هذا أن يتأهب معاذ لمن سيقدم عليهم، وأنهم أهل كتاب يحتاجون إلى استعداد علمي للمجادلة والمناظرة.

وفي هذا أنه يجب على الداعية معرفة حالة المدعوين، وهذا منهج الدعوة: أن الداعية ينظر في حالة المدعوين، ويخاطب كلاً منهم بحسب ما يليق به. فكان لا بد من العلم ولا بد أن يتعلم الداعية قبل أن يدعو.

وقوله: "فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله" هذا فيه التدرّج في الدعوة، وأنه يبدأ بالأهم فالأهم، وهذه هي طريقة الرسل فهم عليهم السلام يبدأون بالدعوة إلى لا إله إلا الله لأنها الأصل والأساس الذي تُبنى عليه باقي أمور الدين، فإنه إذا لم تتحقق لا إله إلا الله فلا فائدة من بقية الأمور. وهذا بخلاف كثيرٍ من دعاة اليوم الذين لا يهتمون بشهادة أن لا إله إلا الله، فهؤلاء مهما أتعبوا أنفسهم، فإن عملهم لا ينفع، حتى يحققوا الأصل والأساس الذي تُبنى عليه أمور الدين وهذا الأساس الدعوة إليه منهج كل الأنبياء عليهم السلام كما قال تعالى: {**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ**} [النحل:36].

وقوله: "ثم ادعهم إلى الإسلام".

هذا محل الشاهد في الحديث للباب، باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

الإسلام هو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله.

وكلمة الإسلام غطاء يدّعيها كل الطوائف المنحرفة والضالة والكافرة: القاديانية، والباطنية، والقبورية وغيرهم من الطوائف المنحرفة.

لكن لو شرح الإسلام بأنه التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من المشركين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وإفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادات من الذبح والنّذر والاستغاثة

والاستعاذة، حينئذٍ يتبين الإسلام الصحيح من الإسلام المزيّف.

فالإسلام ليس مجرد انتساب ودعوى فقط، أو قول لا إله إلا الله بدون التزام بمعناها ومدلولها حتى لو كان عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ يعتبر من حق لا إله إلا الله.

لهذا لما ارتدّ عن الإسلام مَن ارتد بعد وفاة النبي ﷺ وعزم أبو بكر رضي الله عنه على قتالهم، قال له الصحابة، ومنهم عمر: "يا خليفة رسول الله، كيف تقاتلهم وهم يقولون: لا إله إلا الله، قال: إن رسول الله ﷺ يقول: "إلا بحقها" وإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عقالاً[3] كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه".

وقوله: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمر النعم". هذا ترغيب في الدعوة إلى الله عز وجل، وحُمر النعم الإبل الحمر، وهي أنفَس أموال العرب.

[3] رواية عناقاً أصحّ من رواية عقالاً كما نبّه على ذلك شيخنا الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود رقم (1376).

الباب السادس

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: {**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**} [الإسراء:57]. وقوله: {**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ**} [الزخرف:26 و27]. وقوله: {**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ**} [التوبة:31]. وقوله: {**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ**} [البقرة:165].

وفي الصحيح، عن النبي قال: "من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حَرُم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل". وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب.

الشرح:

لا بد للداعية أن يعرف معنى الإسلام على الحقيقة وأن يعرف نواقض الإسلام ونواقض الشهادتيْن. وبعض الدعاة لا يحب أن يبين للناس هذه الأشياء، لأنهم – بزعمهم – ينفرون منه وهو يريد أن يجمع الناس. فعلى ماذا يريد أن يجمعهم؟ على الجهالة؟ أو على ضلالة؟ لا بد أن تبين ما تدعو إليه، وتوضحه كما قال تعالى في حق نبيه: {**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**} **والبصيرة معناها:** العلم بما يدعو إليه ومعرفة معناه، حتى يوضح للناس ما يدعو إليه.

والوسيلة هنا معناها: الطاعة والقُرب، فالملائكة – عليهم الصلاة والسلام – وعيسى عليه السلام وعزير عليه السلام، والأولياء والصالحون كلهم يتقربون إلى الله بالطاعة، يعبدون الله، لماذا؟ أيهم أقرب، كل واحد يرجو

أن يكون أقرب إلى الله تعالى، يتقربون إليه بطاعته، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فدلّ على أنهم عباد فقراء إلى الله سبحانه وتعالى لأنهم بحاجة إليه ولرحمته ويخافون عذابه، فهم لا يستطيعون جلب النفع لأنفسهم، ولا دفع الضر عنها، فكيف يملكون ذلك لكم يا من تعبدونهم؟

فالوسيلة هنا معناها: الطاعة والعبادة، وليس كما يظنه القبوريون والمُخرِّفون أن الوسيلة معناها: أن تجعل بينك وبين الله شخصاً يرفع حوائجك إلى الله تعالى. فهذه هي الوسيلة عند المشركين قديماً وحديثاً {**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ**} [يونس:18]. وقال تعالى: {**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**} [الزمر:3].

ليس هناك حاجة أن تجعل بينك وبين الله وسائط. بل ارفع حوائجك إليه مباشرة وصلّ له، وانحر له، وانذر له، واعبده وهو سبحانه وتعالى قريب مجيب. {**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**} [البقرة: 186]، ما الداعي أن تجعل بينك وبين الله وسائط وهو قريبٌ يسمعك ويراك سبحانه، باب الله مفتوح في الليل وفي النهار، لا يغيب عن عباده، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

فهذه الآية فيها أن معنى لا إله إلا الله أن لا يُدعى إلا الله وأن الوسائط يجب أن لا تُتخذ بين العباد وبين الله، فمن جعل بينه وبين الله واسطة فقد أخلّ بمعنى لا إله إلا الله.

والآية الثانية: قوله سبحانه وتعالى: {**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**} [الزخرف:26 و27 و28]،

فقوله: {**إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ**} يعني: لا إله، وقوله: {**إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي**} يعني: إلا الله.

فهذه الآية فيها معنى لا إله إلا الله فهي تفسر لا إله إلا الله بأن معناها: ترك عبادة الأصنام والبراءة منها وإخلاص العبادة لله تعالى.

الآية الثالثة في قوله تعالى: {**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ**} يعني اتخذوا علماءهم أرباباً من دون الله لأنهم حرّموا عليهم ما أحل الله وأحلوا لهم ما حرّم الله فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم.

والشاهد أن معنى لا إله إلا الله في هذه الآية: أن لا يُطاع إلا الله سبحانه وتعالى وأن من أطاع أحداً في تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحلّ الله فقد اتخذه رباً من دون الله تعالى.

قال تعالى:{**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ**} [الشورى:21]، "وشرعوا لهم من الدين" يعني: من الحلال والحرام والعبادة ما لم يأذن به الله.

فالتشريع حق لله سبحانه وتعالى، لا يجوز أن يُطاع فيه أحد من المخلوقين غير الرسل، فمعنى لا إله إلا الله هو: إفراد الله تعالى بالطاعة في تحريم ما حرمه وتحليل ما أحله.

الآية الرابعة: {**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ**}، "ومن الناس" يعني المشركين، "اتخذوا من دون الله" يعني: غير الله، "أنداداً" يعني جمع ند، وهو الشبيه والنظير والمثيل، فاتخاذ الأنداد يعني اتخاذ الشركاء، وسُموا أنداداً لأن المشركين ساووهم بالله عز وجل وشبهوهم به تعالى، وأحبوهم محبة عبادة وتذلُل.

"يحبونهم كحب الله": الحب عملٌ قلبي ضد البغض، فالمشركون اتخذوا الأحجار والأشجار والأصنام شركاء لله، وساووهم بالله في المحبة والمراد هنا محبة العبادة.

"والذين آمنوا أشدُ حباً لله" من المشركين، فالمشركون يحبون الله والمؤمنون يحبون الله ولكن المشركين يحبون الله ويحبون معه غيره. أما المؤمنون فيحبون الله وحده محبة عبادة ولا يشركون معه غيره في تلك المحبة فمحبتهم لله خالصة ومحبة المشركين لله مشتركة، فصاروا مشركين والتوحيد لا يصحّ إلا بإخلاص المحبة لله عز وجل فدلّت الآية أن من تفسير لا إله إلا الله إفراد الله تعالى بالمحبة وأن لا يحب معه غيره محبة عبادة.

قال الشيخ رحمه الله: "وفي الصحيح" يعني صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: "من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله". فعلّق حُرمة المال والدم على شيئيْن: أولاً النطق بلا إله إلا الله، والثاني أن يكفر بما يعبد من دون الله". والحاصل، أن هذا الحديث بيّن معنى التوحيد ومعنى لا إله إلا الله، وأنه النُطق بالشهادة والكفر بما يُعبد من دون الله سبحانه وتعالى، والبراءة منه، أما لو قال لا إله إلا الله وهو لا يكفر بما يُعبد من دون الله بأن كان يعبد القبور ويدعو الأولياء والصالحين في الأضرحة، فهذا لم يكفر بما يعبد من دون الله فهذا لا يُحرم دمه ولا ماله لأنه لم يأتِ بالأمرين وإنما أتى بواحدٍ وهو نطقه بالشهادة.

فهذا الحديث عظيم جداً، وهو حجة للموحدين على أصحاب الشبه والمشركين. قال الشيخ رحمه الله: "لم يجعل النطق بلا إله إلا الله بل ولا كونه لا يدعو إلا الله، بل ولا معرفة معنى هذه الكلمة، لم يجعل كل هذه الأمور عاصمة للدم والمال حتى يضيف إليها الكفر بما يعبد من دون الله"، والله تعالى قدّم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله، قال تعالى: {**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ**}، ولا يجتمع الكفر والإسلام أبداً.

ثم قال رحمه الله: "وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب" أي: أن الأبواب الآتية إلى آخر كتاب التوحيد،

كلها تفسير لهذه الكلمة مثل باب النهي عن لبس الحلقة والخيط، والتبرّك بالأشجار والأحجار، وباب السحر، وباب التنجيم، وباب ما جاء في الطيرة، وباب الرقى والتمائم كله يفسر التوحيد ومعنى لا إله إلا الله.

الباب السابع
باب من الشرك
لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى: {**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**} [الزمر:38].

عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي ﷺ "سأل رجلاً في يده حلقة من صُفر فقال: ما هذا؟، قال: من الواهنة، فقال: انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك لو متَّ وهي عليك ما أفلحتَ أبداً" (رواه أحمد بسندٍ لا بأس به)[4]. وله عن عُقبة بن عامر، مرفوعاً: "من تعلّق تميمة فلا أتمّ الله له، ومن تعلّق وَدْعة فلا ودَع الله له"، وفي رواية: "من تعلق تميمة فقد أشرك"[5].

ولابن أبي حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمّى، فقطعه وتلا قوله تعالى: {**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**} [يوسف:106].

الشرح:

قوله رحمه الله: "باب من الشرك" أي: من أنواع الشرك "لبس الحلقة والخيط ونحوهما": يعني مما يعلّق على البدن أو على الدابة، أو على السيارة أو على الأبواب والبيوت من الأشياء التي يعتقدون أنها تدفع عين الحاسد، وأنها تحرس تلك الأشياء من الشرور والمحاذير.

وهذا من الشرك، لأنه تَعلُّق على غير الله سبحانه وتعالى، لأن الله هو الذي يدفع الشر، وهو الذي إذا أراد بعبده شيئاً فلا بد أن يقع إما في نفسه أو ماله أو أهله،

---

4 انظر الضعيفة رقم (1029) وانظر ضعيف الترغيب رقم (2015).

5 الحديث فيه ضعف، انظر الضعيفة رقم (1266) وانظر أيضاً "ضعيف الترغيب" رقم (2014).

فلا أحد يدفعه وإذا منع شيئاً فلا أحد ينزله، قال تعالى: {**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**} [فاطر:2].

الأمر كله بيد الله جل وعلا، فيجب أن تتعلق القلوب بالله عز وجل، فمن تعلق قلبه بالله ووحّد الله فإنه لا يضره شيءٌ إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، أما من تعلق على غير الله فإن الله يكله إلى ما تعلق عليه، ويبتليه.

قال الشيخ رحمه الله: وقول الله تعالى: {**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**}، هذه الآية من سورة الزمر، وهي السورة العظيمة التي قرر الله فيها التوحيد، وأبطل فيها أنواع الشرك، فالسورة من أولها إلى آخرها تعالج قضية العقيدة وأنواع الشرك وإبطاله.

ومن ذلك هذه الآية الكريمة: "قُلْ" يا محمد، الخطاب للنبي ﷺ، أي قل لهؤلاء المشركين: {**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**}، من الأصنام والأحجار والأولياء والصالحين والقبور وكل ما يُعبد من دون الله، فالسؤال موجّه إلى كل مشرك على وجه الأرض يعبد شيئاً أو يدعوه من دون الله إلى أن تقوم الساعة.

"إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ" يعني: بضرر، أو بفقر أو بموت أو ضياع مال، أو إصابة في قريب أو غير ذلك مما يضرني في بدني أو أهلي أو مالي.

"هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ"، هل هذه المعبودات تستطيع دفْع هذه الشرور ممن دعاها، قال تعالى: {**قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً**} [الإسراء:56]، أو "أو أرادني برحمة" من صحة وغنى وعافية وغير ذلك، فهل تستطيع هذه المعبودات التي تدعونها من دون الله أن تمنع نزول رحمة الله على أحدٍ من عباده؟

"قل حسبي الله" أي: هو كافيني، ففيه تفويض الأمور إلى الله سبحانه وتعالى وتعليق القلوب به جل وعلا دون سواه.

"عليه يتوكل المتوكلون" ولا يتوكلون على الخيط والحلقة والصنم والقبر والولي أو غير ذلك، بل يتوكلون على رب هذه الأشياء لأنه بيده مقادير الأشياء.

إذاً فلا تعلق قلبك إلا بالله عز وجل ولا تتوكل إلا عليه، ولا يمنع هذا من اتخاذ الأسباب الجالبة للخير، والأسباب الواقية من الشر، ولكن يكون الاعتماد على الله سبحانه وتعالى.

وفي حديث عمران رضي الله عنه أنكر النبي على الرجل الذي لبس حلقة في يده لدفع الواهنة فقال النبي : "انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً" ففيه المبادرة بإزالة مظاهر الشرك وعدم التواني في تركه، وفيه دليل على أن لبس هذه الأشياء لدفع الضرر، أنه يسبب عكس المقصود.

وقوله: "فإنّك لو متَّ وهي عليك ما أفلحتَ أبداً" فيه دليل على أن الشرك لا يُغفر ولو كان أصغر".

قال الشيخ "وله" أي: للإمام أحمد رحمه الله "من تعلّق تميمه فلا أتمّ الله له" أي من علّق هذا الشيء على جسمه، أو علّق قلبه به، واعتقد فيه النفع أو الضر من دون الله عز وجل "تميمه فلا أتمّ الله له" تميمه يعني خرزات تُعلّق على الأولاد يتقون بها العين وما شابهها من الحروز والحجب ومنها ما يعلق على الباب أو على السيارة ويظنون أن ذلك يدفع عنهم الشر والحسد والعين. وكل ذلك من أمور الجاهلية "فلا أتمّ الله له"، هذا دعاء من النبي بأن الله لا يتم له أموره ويعكس مقصوده عليه والنبي مجاب الدعوة، إلا أن يتوب من مثل ذلك.

وقوله: "ومن تعلّق ودعة، فلا ودع الله له". الودع: شيءٌ يستخرج من البحر، يعلقونه على صدورهم أو على أعناقهم أو على دوابهم يتقون به العين، "فلا ودع الله

له": أي لا تركه في دَعَة وسكون وراحة، بل سلّط عليه الهموم والأحزان والوسواس حتى يصبح في قلق وهم وغم دائم.

قال: "في رواية" يعني للإمام أحمد رحمه الله "من تعلق تميمه، فقد أشرك"، هذا هو الشاهد من الحديث للباب، لأن الباب "باب من الشرك تعليق الحلقة والخيط وغيرهما"، فإن قلت: "ما نوع هذا الشرك؟ هل هو الشرك الأكبر؟

نقول: فيه تفصيل: إن كان يرى أنها تقيه من دون الله فهو شرك أكبر، وإن كان يرى أنه سبب فقط والواقي هو الله سبحانه وتعالى فهو شرك أصغر، لأن الله لم يجعل هذه الأشياء سبباً.

وقوله: "ولابن حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحُمّى" يعني: اتخذه أن يقيه من الحُمّى – وهي ارتفاع حرارة الجسم – فحذيفة ابن اليمان رضي الله عنه قطع هذا الخيط من هذا الرجل.. وهذا فيه إزالة المنكر، كما أن النبيّ لما رأى الحلقة قال: "انزعها".

قوله: وتلا قوله تعالى: {**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**} قيل معناه: أنهم لا يؤمنون بالربوبية، إلا وهم مشركون في الألوهية.

الباب الثامن
باب ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح، عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه: "أنه كان مع رسول الله في بعض أسفاره فأرسل رسولاً: أن لا يبقينَّ في رقبة بعير قلادة من وترٍ أو قلادة إلا قُطعت".

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، سمعتُ رسول الله يقول: "إن الرُّقى والتمائم والتوله شرك" (رواه أحمد، وأبو داود).

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: "من تعلق شيئاً وُكل إليه"[6]، والتمائم: شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن، فرخّص به بعض السلف، وبعضهم لم يرخّص فيه ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

و"الرّقى": هي التي تُسمى العزائم، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله من العين والحمة".

و"التوله": هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.

وروى الإمام أحمد، عن رويفع، قال: قال لي رسول الله : "يا رويفع، لعلّ الحياة ستطول بك، فأخبر الناس أنّ من عقد لحيته، أو تقلّد وتراً أو استنجى برجيع دابةٍ أو عظم، فإنّ محمداً بريء منه". وعن سعيد بن جُبير، قال: "من قطع تميمةً من إنسان، كان كعدل رقبة" (رواه وكيع). وله عن إبراهيم، قال: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن.

الشرح:

هذا الباب مكمّل لما قبله إلا أن الشيخ رحمه الله صرح بالحكم في الباب الذي قبله أنه من الشرك لورود

---

6 الحديث حسن لغيره، انظر صحيح الترغيب رقم (3456).

الدليل من سنة النبي . لكن في هذا الباب لعدم ورود الحكم صريحاً في الأحاديث قال رحمه الله باب ما جاء في الرقى والتمائم، ولم يطلق الحكم لما فيه من التفصيل، وهذا من دقة فهم الشيخ رحمه الله ووَرعه.

الشاهد من حديث أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه: تحريم عقد القلائد على الدواب، أو على الآدميين بقصد أن يدفع العين أو الضرر، لأنه لا يدفع العين أو الضر إلا الله جل وعلا، أو لجلب النفع لأنه لا يجلب النفع إلا الله أيضاً كما مر معنا.

الباب التاسع
باب من تبرّك بشجر أو حجر ونحوهما

وقـول الله تعـالى: {أَفَـرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُـزَّى} [النجم:19].

وعن أبي واقد الليثي قال: "خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنيْن، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سِدرةٌ يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط. فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: "الله أكبر! إنها السنن قلتم – والذي نفسي بيده – كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال: إنكم قومٌ تجهلون" "لتركبنّ سنن من قبلكم" (رواه الترمذي وصححه).

الشرح:

الحاصل أن التبرك بالأشجار والأحجار هو من سنة المشركين ومن سنة الجاهلية ومن فعله فهو متشبه بالكفار، وهو كافر مثلهم، لا فرق بين من يعبد اللات والعزى، ومن يعبد القبر. أو الذي يطلب البركة من الشجرة والذي يطلبها من الصنم، فكله شرك لا يُغفر إلا من تاب، فلا يجوز التبرّك بمخلوق ويُستثنى من ذلك النبي ﷺ وما انفصل عنه من ريق أو شعر أو وَضوئه ﷺ لأنه مبارك وهذا خاص به عليه الصلاة والسلام.

الباب العاشر
باب ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى: {**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ**} [الأنعام:162 و163]. وقوله: {**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**} [الكوثر:2].

عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: "لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديْه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غيّر منار الأرض" (رواه مسلم).

وعن طارق بن شهاب، أن رسول الله ﷺ قال: "دخل الجنة رجلٌ في ذباب، ودخل النار رجلٌ في ذباب، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مرّ رجلان على قومٍ لهم صنم لا يجاوزه أحدٌ حتى يقرب إليه شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرّب، قال: ليس عندي شيءٌ أقرّب، قالوا له: قرّب ولو ذباباً، فقرّب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرّب، قال ما كنتُ لأقرّب لأحدٍ شيئاً دون الله عز وجل فضربوا عنقه، فدخل الجنة". (رواه أحمد)[7].

الشرح:

في الآية الأولى: {**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي**}، **النسك:** كل ما يُذبح من بهيمة الأنعام على وجه التقرّب والعبادة، كهدي التمتع والقران، وهدي التطوع وهدي الجبران، والأضاحي والعقيقة، هذه كلها تسمى نسكاً. وكان الذبح على وجه التقرب موجوداً في الجاهلية، كانوا يذبحون للأصنام، ويذبحون للجن، ويذبحون للكواكب، ويذبحون لغير الله.

وقَرْن النسك بالصلاة يدل على أنه عبادة عظيمة لا يجوز صرفها إلا لله سبحانه وتعالى. وفي الآية الثانية:

---

[7] لا يصحّ مرفوعاً وصحّ موقوفاً عن سلمان أخرجه أحمد في الزهد (ص 15).

{**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**}، هذا أمرٌ من الله تعالى لنبيه أن يخلص الصلاة لله وأن يخلص النحر (الذبح) لله أيضاً. لا يشرك به أحداً، وقد قرن الله أيضاً الصلاة والنحر معاً مما يدل على أنه عبادة عظيمة يجب صرفها لله تعالى.

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: "لعن الله من ذبح لغير الله". اللعن معناه: الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى، فمن قرّب ذبحاً لغير الله من الأصنام، والأضرحة والأشجار والأحجار والجن وغير ذلك فقد لعنه الله، ويدل ذلك على شدة الجريمة، فإن الله لا يلعن إلا على جريمة خطيرة، أياً كان هذا الذبح كثيراً أو قليلاً، جليلاً أو حقيراً.

والحاصل أن قوله سبحانه: {**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي**} وقوله: {**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**} وقول الرسول ﷺ: لعن الله من ذبح لغير الله" يشمل كل الأمور الآتية:

1. ما ذُبح للأصنام تقرّباً.
2. ما ذُبح تعظيماً لمخلوق وتحيةً له عند نزوله ووصوله إلى المكان الذي يستقبل به.
3. ما ذُبح للحم وذُكر عليه اسم غير الله تعالى.
4. ما ذُبح عند انحباس المطر في مكان معين أو عند قبر، لأجل نزول المطر.
5. ما يُذبح عند نزول البيوت خوفاً من الجن أن تصيبه.
6. ما يُذبح عند عتبات البيوت، والأبواب لاتقاء أمور ومصائب تحدث للبيت أو لأهل البيت، لأن الجان يسكنون عتبات البيوت. كل ذلك يدخل تحت باب الذبح لغير الله ويكون مشركاً بالله تعالى.

وفي حديث طارق بن شهاب "حديث الذباب" يستفاد من هذا الحديث الشريف أن العبرة بالنيّة وليس العبرة بالمذبوح، فرجلٌ دخل النار لأنه ذبح ذباب لغير الله فأشرك بذلك ورجلٌ دخل الجنة لأنه لم يذبح أو لم يكن ليقرّب أي شيء دون الله فدخل الجنة.

فدلّ الحديث على أن المدار على أعمال القلوب
وفيه دليل على قرب الجنة والنار، وفيه أن الرجل الذي قرّب ذباباً كان مؤمناً فدخل النار بذبحه الذباب وتقريبه شيئاً لغير الله، لأنه لو كان كافراً لدخل النار بكفره.
وهذه مسألة خطيرة جداً، فالشرك الأكبر يخرج من الملّة فليتنبه هؤلاء الذين يذبحون للقبور وللجن وللشياطين وللعفاريت والسّحَرة ويدّعون أنهم على الملة ولا يعلمون أنهم خرجوا منها، والعياذ بالله.

الباب الحادي عشر
باب لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى: {**لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا**} [التوبة: 108].

وعن ثابت بن الضحاك، قال: "نذر رجلٌ أن ينحرِ إبلاً ببوانة، فسأل النبي ﷺ، فقال: هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟ قالوا: لا، قال: فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟ قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: أوفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم" (رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما).

الشرح:

هذا الباب فيه سدّ الذريعة المفضية إلى الذبح لغير الله، والنبي ﷺ نهى عن الوسائل المفضية للشرك مثل: نهيه عن الصلاة إلى القبور وإن كان المصلي لا يصلي إلا لله عز وجل، ونهى عن الدعاء عند القبور، وإن كان الداعي لا يدعو إلا الله وحده، وكذلك نهيه ﷺ عن الصلاة عند غروب الشمس وعند شروقها لأنه وسيلة لعبادتها لأن المشركين يسجدون للشمس عند الغروب وعند الشروق. فكل موطن وكل زمان اتخذه المشركون لعبادتهم نهانا النبي ﷺ أن نشاركهم فيه من باب سد الذرائع. ومن باب قطع مشابهة المشركين، فمن تشبّه بقومٍ فهو منهم.

وفي حديث ثابت بن الضحّاك قال: "نذر رجلٌ أن ينحرِ إبلاً ببوانة"، وبوانه: اسم موضع بين مكة والمدينة، وفي هذا الحديث مسائل منها أن الذبح عبادة لا تجوز إلا لله، وأنه لا يُذبح بمكان يُذبح فيه لغير الله تعالى لأنه من وسائل الشرك، وفيه خطورة الذبح لغير الله، فإذا كان الذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله محرمٌ فكيف بالذبح لغير الله؟! وفيه وجوب الوفاء بالنذر إذا كان طاعة.

الباب الثاني عشر
باب من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى: {**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**} [الإنسان:7].
وقوله: {**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ**} [البقرة:270].
وفي "الصحيح" عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصِه".
الشرح:
الوفاء بالنذر طاعة، والنذر لغير الله شرك كثير من الناس صاروا يتجهون إلى القبور والأضرحة لاعتقادهم فيها البركة وجلب النفع ودفع الضرر، وأن هذا مجرّب ويقولون أن النذر للقبر الفلاني أو للشيخ الفلاني يحصل به المقصود والمطلوب، فإن كان مريضاً يُشفى وإن امرأة أرادت الحمل تحمل وإذا أراد الناس المطر نزل.. إلى غير ذلك. وقد ينذرون لهذا الشيخ أو هذا القبر ويحصل لهم المقصود ابتلاءً وامتحاناً من الله سبحانه وتعالى.
وحصول المقصود لا يدل على جواز الفعل فيجب أن يتنبه لهذه الشبهة الخطيرة، والنبي ﷺ نهى عن النذر أصلاً، فقال: "لا تنذروا، فإن النذر لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل".
فالنذر فيه إحراج الإنسان لنفسه وتحميلها شيئاً قد يشقّ عليها، وكان قبل أن ينذر في سعة من أمره، إن شاء فعل هذه الطاعة المستحبة وإن شاء لم يفعلها، فلما نذر فعلها لزمته وهذا منهيٌ عنه كما في الحديث السابق.
إلا أن الإنسان إذا ألزم نفسه بطاعة عن طريق النذر لزِمه الوفاء، والحاصل أنه يتبين من الآيات والأحاديث أن النَذر عبادة لا يجوز صرفها لغير الله. ومن تاب إلى الله تاب الله عليه.

الباب الثالث عشر
باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: {**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**} [الجن: 6].

وعن خولة بنت حكيم، قالت: "سمعتُ رسول الله يقول: من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق، لم يضره شيءٌ حتى يرحل من منزله ذلك" (رواه مسلم).

الشرح:

الجن من عالم الغيب، يعيشون معنا على هذه الأرض وهم مكلّفون مثل الإنس، وهم يروننا من حيث لا نراهم، وقد يتشكلون ويتصورون بصور حيّات أو حيوانات، أو بصور آدميين، أعطاهم الله القدرة على ذلك وهم مخلوقون من نار، وسُمّوا جناً لاجتنانهم، أي: استتارهم عن الأنظار، والإيمان بوجودهم من الإيمان بالغيب، وتصديقاً لخبر الله تعالى، وخبر النبي فمن جحد وجود الجن فهو كافر.

والعرب كانوا في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً قال أحدهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فنزلت الآية الكريمة: {**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**}، وهذه استعاذة جاهلية شركية أبدلها النبي بالاستعاذة الشرعية بقوله: "أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق".

تنبيه: في هذا الدعاء دليلٌ على أن القرآن غير مخلوق – كما تقوله الجهمية والمعتزلة – لأنه لو كان كذلك لما جاز الاستعاذة بكلمات الله وكلمات الله هي القرآن. فالقرآن كلام الله غير مخلوق، وصفة من صفاته سبحانه، فالاستعاذة بالمخلوق شرك والاستعاذة بالخالق مشروعة ومن صفات الخالق كلام الله.

والحاصل أن الاستعاذة عبادة لا يجوز صرفها إلا لله.
فمن استعاذ بغيره من الجن والشياطين كان خارجاً من الملة كافراً، مشركاً بالله عز وجل والعياذ بالله.

الباب الرابع عشر
باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالى: {**وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ**} [يونس:106]. وقول الله تعالى: {**وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ**} [يونس: 107]. وقوله: {**فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ**} [العنكبوت: 17]. وقوله: {**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ**} [الأحقاف:5]. وقوله: {**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**} [النمل:62]

وروى الطبراني، بإسناده: أنه كان في زمن النبي منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق، فقال النبي : "إنه لا يستغاثُ بي، وإنما يُستغاث بالله"[8].

الشرح:

قوله "من الشرك" أي: من أنواع الشرك الأكبر "أن يستغيث بغير الله" أي: فيما لا يقدر عليه إلا الله. والاستغاثة طلب العون في وقت الشدة، أما الدعاء فهو عام في وقت الشدة وفي غيرها.

الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. أما دعاء العبادة: الثناء على الله تعالى بأسمائه وصفاته، ودعاء المسألة: طلب الحاجات من الله تعالى.

الذي يملك النفع والضر هو الله، الله هو النافع وهو الضار، بيده كل شيء. فلا يجوز طلب الغوث - فيما لا يقدر عليه إلا هو - إلا منه جل وعلا، فمن طلب الغوث من غيره في ذلك فقد أشرك بالله وخرج من الملة كمن

---

8 الحديث ضعيفٌ في سنده بن لهيعة، ولكن يشهد لمعناه نصوص كثيرة في الكتاب والسنّة.

يدعو أصحاب القبور ويطلب منهم العون والمدد والشفاء والولد والعياذ بالله.

فهؤلاء أشد الناس ضلالاً كما قال تعالى: {**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ**}، لا أحد أشد ضلالاً منهم.

وفي الحديث الذي رواه الطبراني، نهى النبي ﷺ أصحابه أن يقولوا: نستغيث برسول الله ﷺ مع أنهم طلبوا منه عليه الصلاة والسلام ما يقدر عليه، إلا أنه نهاهم تأدباً مع الله عز وجل، فإذا كان النبي ﷺ منع من الاستغاثة الجائزة في حياته فكيف بالاستغاثة به بعد وفاته وفيما لا يقدر عليه ﷺ؟ وكيف بالاستغاثة بمن هو دونه من الناس؟ سبحان الله العظيم.

نجد كثيراً من الناس يتغنى ويحتفل بيوم مولد النبي ﷺ ويستغيث به وكأنه لم يقرأ ولم يعِ هذه الآيات والأحاديث الواضحة وضوح الشمس بتحريم ذلك وجعله شركاً يخرج من الملة، اسمع لأبياتٍ من قصيدة البوصيري:

يا أكرم الخلقِ مالي من ألوذ به ... **سواكَ عند حلول الحادث العممِ**

إن لم تكن فــي معادي آخذاً ... **بيدي فضلاً وإلا قل يا زلة القدمِ**

فإن من وجودك الدنيا وضرتها ... **ومن علومكَ علم اللوحِ والقلمِ**

يقول: يوم القيامة ما ينقذ إلا الرسول ﷺ ولا يخرج من النار إلا الرسول ﷺ أين الله سبحانه وتعالى؟

نسأل الله عز وجل أن يحفظ لنا ديننا وعقيدتنا، وأن يجعلنا من الدعاة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

الباب الخامس عشر

قول الله تعالى: {أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا} [الأعراف:191 و192]. وقوله: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ} [فاطر:13].

وفي "الصحيح" عن أنس قال: "شُجّ النبي ﷺ يوم أحد وكُسرت رباعيته، فقال: "كيف يفلح قوم شجوا نبيّهم؟". فنزلت: {**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**} [آل عمران: 128].

وفيه: عن ابن عمر، رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: "اللهم العن فلاناً وفلاناً" بعدما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، فأنزل الله: {**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**}. وفي رواية: يدعو على صفوان بن أميّة، وسُهيل ابن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت الآية: {**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**}.

وفيه: عن أبي هريرة، قال: قام فينا رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه: {**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**} [الشعراء:214]. فقال: "يا معشر قريش – أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفيّة عمة رسول الله، لا أغني عنكِ من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت. لا أغني عنكِ من الله شيئاً".

الشرح:

عقد الشيخ هذا الباب لإيراد الأدلة من الكتاب والسنّة على بطلان الشرك، وأن الله له الأمر كله، ليس لأحدٍ من الأمر شيء. فالله تعالى يبين بالآيات أن هؤلاء الذين يدعون من دون الله أنهم مخلوقون لا يستطيعون نصر أحدٍ دعاهم وأنهم لا يملكون من قطمير.

وها هو النبي وهو أشرف الخلق تأذّى في معركة أحد، ولم يستطع دفع الضر عن نفسه، فكيف يدفعه عن غيره، والله تعالى يقول له: {**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**}، وهو عليه الصلاة والسلام يقرر ذلك وينادي على أهل قريش كل واحدٍ باسمه أنه لا يُغني عنهم من الله شيئاً.

فإذا كان ذلك، فلا يُدعى إلا الذي خلق وبيده الأمر والخلق المالك للنفع والضر، سبحانه وتعالى عما يشركون.

الباب السادس عشر

باب قول الله تعالى: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ:23]

وفي "الصحيح" عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلةٌ على صفوان، ينفذهم ذلك، {**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**} فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، وصفه سفيان بكفة فحرفها وبدّد بين أصابعه. فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا كذا: كذا كذا؟ فيُصدّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء".

وعن النواس بن سمعان، رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة – أو قال رعدة شديدة – خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السماء صُعقوا وخرّوا لله سُجّداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل".

الشرح:

هذا الباب مكملٌ للأبواب التي سبقته، ففي الأبواب السابقة بين الشيخ – رحمه الله – بطلان عبادة الأنبياء

والصالحين من بني آدم، بالأدلة من الكتاب والسنّة، وفي هذا الباب يبين بطلان عبادة الملائكة.

فها هي الملائكة تصعق وتخرّ ساجدة خوفاً من الله، فهم على عِظم خلقهم ومكانتهم وهم أقوى الخلق خلقه، إلا أنهم يخرّون لقول الله تعالى حين يقضي الأمر في السماء. فكيف تصلح عبادتهم من دون الله عز وجل؟

الباب السابع عشر
باب الشفاعة

وقول الله عز وجل: {**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ**} [الأنعام:51]. وقوله: {**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**} [الزمر:44]. وقوله: {**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**} [البقرة:255]. وقوله: {**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى**} [النجم:26]. وقوله: {**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ**} [سبأ:22].

قال أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله -: "نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون. فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبقَ إلا الشفاعة، فبيّن أنها لا تنفع إلا لمن أذِن له الرب، كما قال: {**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**} [الأنبياء: 28].

فهذه الشفاعة هي منتفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآن الكريم، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: "ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تعطَ واشفع تشفع".

وقال أبو هريرة له ﷺ: "من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: "من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه"، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله سبحانه وتعالى يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبتت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيّن النبي أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص والتوحيد (اهـ)، كلامه رحمه الله.

الشرح:

الشفاعة معناها: التوسط في قضاء حاجة المحتاج لدى من هي عنده، سميت بذلك لأن طالب الحاجة كان منفرداً في الأول، فلما انضم إليه الشافع صار شفعاً، والشفاعة إما أن تكون حسنة أو سيئة، قال تعالى: {**مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا** } [النساء:85]، فمن يشفع عند السلاطين أو الأغنياء لقضاء حاجة المحتاجين يُعْتبر عمله هذا شفاعة حسنة يؤجر عليها، قال النبي : "اشفعوا تُؤجروا، ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء".

أما إذا كانت الشفاعة في أمر محرم كالذي يشفع عند السلطان لتعطيل الحدود فهذه شفاعة سيئة، والمراد في ذلك كله أن هذه الشفاعات تكون بين الناس.

أما المراد في هذا الباب هو الشفاعة عند الله تعالى، فإن المشركين قديماً وحديثاً يعبدون الأصنام والأحجار والأشجار والقبور والأولياء والصالحين والملائكة والأنبياء، فإذا أنكر عليهم ذلك قالوا: "هؤلاء شفعاؤنا عند الله" وقد بيّن الله أن هذه عبادة لهؤلاء من دون الله وإن ادّعوا إنما هي شفاعة عند الله، قال تعالى: {**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ**} [يونس:18].

والشفاعة عند الله لا تُقبل إلا بشرطيْن:

الأول: أن تُطلب من الله، لا من غيره.

الثاني: أن تكون فيمن تُقبل فيه الشفاعة.

والذي تُقبل فيه الشفاعة هو الموحد الذي ليس عنده شيء من الشرك، ولكن عنده بعض المعاصي، فهذا تُقبل فيه الشفاعة بإذن الله.

قال تعالى: {**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**}، وقال تعالى: {**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**}.

والشفاعة ستة أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود، وهي التي تكون من الرسول ﷺ لأهل الموقف عندما يطول بهم الوقوف فيشفع لهم عند الله ليقضي بينهم وإراحتهم من الموقف.

النوع الثاني: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة لأن يدخلوها.

النوع الثالث: شفاعة النبي ﷺ في بعض أهل الجنة في رفع درجاتهم بها.

النوع الرابع: شفاعة النبي ﷺ في عمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه لحمايته له من أهل قريش.

النوع الخامس: الشفاعة فيمن استحق النار من أهل التوحيد أن لا يدخلها.

النوع السادس: الشفاعة فيمن دخل النار من أهل التوحيد أن يخرج منها.

وهاتان الشفاعتان الأخيرتان ليستا خاصتيْن بالنبي ﷺ، بل هما عامتان في الأنبياء والأولياء والصالحين والشهداء والأفراط – وهم الأولاد الصغار – يشفعون لآبائهم.

وهذه الشفاعة الأخيرة يثبتها أهل السنة والجماعة ويخالفون فيها المبتدعة من المعتزلة والخوارج الذين يقولون أن من دخل النار لا يخرج منها.

ومحل الشاهد من الآية : {**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**} أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله فبدون إذنه سبحانه لا يستطيع أحد أن يشفع عند الله، وفي هذا رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء بدون إذنه عز وجل.

الباب الثامن عشر
باب قول الله تعالى: {**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**}

وفي "الصحيح" عن ابن المسيب عن أبيه قال: "لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله وعنده عبد الله بن أمية وأبو جهل فقال له: "يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله" فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبيّ فأعادا. فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي : "لأستغفرنّ لك ما لم أُنهَ عنك"، فأنزل الله عز وجل: {**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ**} [التوبة:113]. وأنزل الله في أبي طالب: {**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء**} [القصص:56].

الشرح:

قوله: {**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**} المقصود المحبة الطبيعية، ليست المحبة الدينية، فإن المحبة الدينية لا تجوز للمشرك ولو كان أقرب الناس.

والهداية نوعان: هداية التوفيق، يعني توفيق القلب للهداية وهذه لا يملكها أحد إلا الله، يعطيها الله لمن يستحقها لأنه هو الذي يعلم في النفوس فلا يعطيها لمن لا يستحقها.

وهداية الإرشاد والدعوة والبيان، وهذه يملكها كل داعية عالِم يدعو للخير.

والمقصود من عقد هذا الباب هو الرد على المشركين الذين يتعلقون بالأولياء الصالحين ويدعونهم من دون الله. فإن النبي لم يملك لعمّه أبي طالب الهداية، فغيره من باب أولى، والله تعالى أعلم.

الباب التاسع عشر
باب ما جاء في أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلوّ في الصالحين

وقول الله عز وجل: {**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ**} [النساء:171].

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: {**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**} [نوح: 23]. قال: هذه أسماء رجال صالحين من من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً. وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت.

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: "لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم".

وعن عمر، أن رسول الله قال: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله" (أخرجاه).

وقال: قال رسول الله : "إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو". ولمسلم، عن ابن مسعود، أن رسول الله قال: "هلك المتنطعون" قالها ثلاثاً.

الشرح:

الغلو في الشخص هو: المبالغة في مدحه، ورفعه فوق منزلته التي أنزله الله فيها، والغلو في الدين هو: الزيادة عن الحد المشروع في العبادات في مقاديرها وفي كيفيتها. وفي هذا الباب أنّ سبب كفر بني آدم كان الغلو في الصالحين، وذلك أن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام على دين التوحيد دين أبيهم آدم عليه السلام عشرة قرون، ثم بعد ذلك مات في سنة واحدة، رجال

علماء صالحين ذكر الله سبحانه أسماءهم في القرآن الكريم: {**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**}.

هذه أسماء هؤلاء الرجال الصالحين، فلما ماتوا حزن عليهم الناس حزناً شديداً، فاستغل الشيطان – لعنه الله – هذه العاطفة فيهم، وأشار عليهم بمشورة ظاهرها النُّصح وباطنها الخديعة، فأشار إليهم بأن يصوروا تماثيلهم وأن ينصبوا هذه التماثيل على مجالسهم، من أجل أن ينشطوا على العبادة، فقبلوا هذه المشورة وابتدعوا هذه البدعة. حتى إذا هلك هذا الجيل ونُسي العلم بموت العلماء الذين يحذرون من الشرك عُبدت هذه التماثيل من دون الله.

ومن حينها حدث الشرك في الأرض وغيّر دين آدم عليه السلام، فبعث الله سبحانه وتعالى النبي نوحاً عليه السلام إلى هؤلاء القوم ليدعوهم إلى التوحيد.

فها هو النبي محمد يحذرنا من الغلو فيه فقال: "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله"، يحذر النبي أنْ يُعبد من دون الله.

وفي ذلك أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وفيه سد الذريعة إلى الشرك.

فالحذر من الغلو في الصالحين فبسببه كان شرك بني آدم.

الباب العشرون
باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟

وفي الصحيح، عن عائشة: أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: "أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله". فهؤلاء جمعوا بين الفتنتيْن: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما عنها قالت: "لما نُزل برسول الله ﷺ، طفِق يطرح خميصةً له على وجهه، فقال وهو كذلك: "لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يُتخذ مسجداً" (أخرجاه)

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: "سمعتُ النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإنّ الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك".

فقد نهى النبي عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن وهو في السياق – يعني في سياق الموت - مَنْ فَعَلَهُ، والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبنِ مسجداً. **وهو معنى قولها**: خشي أن يتخذ مسجداً، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً.

وكل موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يُصلّى فيه يُسمَّى مسجداً، كما قال ﷺ: "جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً". ولأحمد بسندٍ جيد، عن ابن مسعود مرفوعاً: "إن من شرار الناس من تدركهم

الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد" (رواه أبو حاتم في صحيحه)

الشرح:

في الباب الذي قبل هذا كان التحذير من الغلو في الصالحين، وفي هذا الباب التحذير من الغلو في قبورهم.

إن العبادة عند القبور وإن كانت خالصةً لله فإنها سببٌ للشرك، لهذا حذَّر النبي من العبادة عند القبور سداً للذريعة. أما إذا كان يدعو القبر، ويستغيث بالميت فهذا شرك أكبر. يُخْرِج من الملّة، وفي هذا مسائل عظيمة:

الأولى: تحريم البناء على القبور لأنه وسيلة للشرك.

الثانية: تحريم العبادة عند القبر سواءً أكانت العبادة دعاءً أو صلاة أو ذبح أو نذر أو غير ذلك.

الثالثة: تحريم نصب الصور والتماثيل لأنها وسيلة للشرك.

الرابعة: فيه دليل على أن النيّة الصالحة لا تسوّغ العمل السيء.

الخامسة: أن فيه دليل على بطلان الصلاة عند القبور، أو في المساجد المبنية على القبور لأن الرسول نهى عن ذلك، والنهي يقتضي الفساد عند الأصوليين، فمن صلى عند القبر فصلاته غير صحيحة، وعليه أن يعيد الفريضة لأنها صلاة منهي عنها فهي غير مشروعة فلا تصح.

الباب الحادي والعشرون
باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثاناً تُعبد من دون الله

روى مالك في الموطّأ، أن رسول الله قال: "اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد".

ولابن جرير بسنده، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: {**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى**} قال: "كان يلتُّ لهم السّويق فمات، فعكفوا على قبره". وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباس: "كان يلتّ السويق للحجاج".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لعن رسول الله زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج" (رواه أهل السنن)[9].

الشرح:

زيارة قبر الرسول لم يرد بها دليل خاص. حتى أن مالكاً – رحمه الله – كان يكره أن يقول الإنسان: زرتُ قبر الرسول . والأحاديث المروية في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام كلها موضوعة أو ضعيفة شديدة الضّعف، لم يثبت منها شيء، وإنما تدخل زيارة قبره في عموم قوله عليه الصلاة والسلام: "زوروا القبور، فإنها تذكركم بالآخرة".

ولابن عبد الهادي كتاب مستقل اسمه "الصارم المَنْكي في الرد على السبكي" تناول فيه الأحاديث التي استدل بها السبكي على مشروعية السفر لزيارة قبر الرسول فبيَّن ما فيها من المقال واحداً واحداً، حتى أتى على آخرها.

والنبي وهو في السياق، يعني في سياق الموت لعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجداً،

---

[9] ضعيف بهذا اللفظ، انظر ضعيف الجامع رقم (4691)، وقد صحّ الحديث بلفظ "زوّارات القبور".

يحذر ما صنعوا، وقد اشتد غضب الله جل وعلا على من اتخذ قبور أنبيائهم مساجد.

قوله: {**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى**} اللات والعزى أصنام العرب والشاهد في ذلك اللات، وهو رجل كان يلت السويق يعني يخلطه بالسمن ويطعمه للناس ويحسن إليهم فلما مات عكفوا على قبره حتى صار وثناً. وهذا فيه الدليل القاطع بأن الغلو في قبور الصالحين يُصيِّرها وثناً يُعبد، لذلك نبَّه النبي وشدد ولعن من اتخذ القبور مساجد، ودعا ربه فقال: "اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد"، وقد استجاب الله تعالى لنبيه فأحيط بالجدران التي تمنع الوصول إليه وحُفظ من الغلوّ.

الباب الثاني والعشرون
باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى: {**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**} [التوبة:128]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله : "لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم" (رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات)

وعن علي بن الحسين رضي الله عنه، أنه رأى رجلاً يجيء عند فُرجة كانت عند قبر النبي ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: "ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي، عن رسول الله ؟ قال: "لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن تسليمكم ليبلغني أين كنتم" (رواه في المختارة).

الشرح:

لقد امتنّ الله على هذه الأمة أن بعث فيها هذا النبي ، صفاته: رسولٌ من أنفسكم، وعزيزٌ عليه ما عنتّم، حريصٌ عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم، هذه الصفات العظيمة لهذا النبي الرؤوف الرحيم عليه الصلاة والسلام تقتضي أن لا يترك المؤمنين ولا يبين لهم أعظم خطر عليهم وهو الشرك.

قال : "ما تركتُ شيئاً مما يقربكم إلى الله إلا وبيّنته لكم، وما تركتُ شيئاً مما يبعدكم عن الله إلا وبيّنته لكم".

ويقول أبو ذر: "لقد توفي رسول الله وما طائر يقلب جناحيْه إلا وذكر لنا منه علماً، عَلِمَه من عَلِمَه، وجَهِلَه من جَهِلَه". والله يقول: {**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**} [المائدة: 3]، فما لم يكن ديناً يومئذٍ فلا يكن اليوم ديناً.

وفيه أن القبور لا تصلح للصلاة عندها من مفهوم حديث أبو هريرة، وأنه لا يجوز التردد على قبر النبي والقيام والجلوس عنده، والدعاء والصلاة عنده لأن هذا من اتخاذه عيداً وهذا فيه سد الطريق المفضية للشرك، وهو الشاهد من هذا الباب.

الباب الثالث والعشرون
باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقوله تعالى: {**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**} [النساء: 51]. وقوله تعالى: {**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**}[المائدة: 60]. وقوله تعالى: {**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**} [الكهف:21].

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله قال: "لَتتّبِعُنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لدخلتموه" قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: "فمن؟" (أخرجاه).

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله قال: "إن الله زوى لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن إمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيتُ الكنزيْن الأحمر والأبيض وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنةٍ عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرد، وإني أعطيتُك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامّة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً" (رواه البرقاني في صحيحه) وزاد: "وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وضع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌ من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، ولا نبيّ بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي

على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، تبارك وتعالى".

الشرح:

الوثن كل ما عُبد من دون الله، وقصد الشيخ في هذه الترجمة: الرد على من زعم أن هذه الأمة لا يقع فيها الشرك. وهم عبّاد القبور.

"يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ" أي يصدقون به وهو الشرك أو السِّحر أو الساحر أو الكاهن أو الشيطان كل ذلك يسمى جبتاً.

"والطاغوت" مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد، والمراد به هنا: ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مُطاع في غير طاعة الله.

تكملة الآية: {**وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً**} [النساء:51]. ويقولون – يعني اليهود – لكفار قريش هؤلاء – يعني الكفار – أهدى من الذين آمنوا – يعني لمحمد – سبيلاً. واليهود يعرفون الحق ويعرفون أن محمداً حق.

والشاهد من الآية للباب: أنه إذا كان في اليهود من يؤمن بالجبت والطاغوت فسيكون في هذه الأمة من يفعل ذلك تشبهاً بهم.

وكل ما وقع في اليهود والنصارى فإنه سيقع في هذه الأمة من بعض أفرادها أو طوائفها، من يفعله متشبهاً بهم، فها هي الأضرحة، والبناء على القبور، والطواف بها وإقامة الموالد، والاستغاثة بالأموات، والذبح والنذر لهم موجود كما كان موجوداً في اليهود، وهذا هو الشاهد في الآية للترجمة.

وفيه مسألة دقيقة وهامة جداً ألا وهي أن الموافقة لهم في الظاهر تسمى إيماناً ولو لم يوافقهم في الباطن، لأن اليهود لما قالوا لكفار قريش: أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً.

هم في الباطن يعتقدون بطلان هذا الكلام، لكنهم وافقوا كفار قريش في الظاهر ليحصلوا على مناصرتهم،

ومع هذا سمى الله هذا إيماناً بالجبت والطاغوت، فليتنبّه لهذا من يفعل بعض مظاهر الشرك ثم يقول الإيمان بالقلب.

وفي الآية الثانية الشاهد في قوله: {**وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**}. ففي الآية الأولى: أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت وهذه الآية فيها أن فيهم من عبد الطاغوت فلا بد أن يكون في هذه الأمة من يتشبه بهم في ذلك.

وقوله تعالى: {**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**}، قالوا ذلك عن أهل الكهف فقالوا: هؤلاء رجال صالحون، فيهم بركة وخير نبني عليهم مسجداً من أجل التبرّك بهم والصلاة عندهم والدعاء عندهم، لأنهم أولياء الله.

والشاهد من الآية أن البناء على القبور وجعلها مساجد موجود في أول الخليقة، فلا بد أن يكون في هذه الأمة من يبني المساجد على القبور تشبهاً بهم وتصديقاً لنبوءة النبي ﷺ، وقد وقع هذا في هذه الأمة فبنوا على القبور فدلّ على وقوع الشرك في هذه الأمة كما وقع في الأمم السابقة.

أما الأحاديث ففي الحديث الأول: الشاهد أن يكون في هذه الأمة من يتشبه باليهود والنصارى في كل شيء، ومنه الشرك، فلا بد أن يوجد في هذه الأمة من يعمل الشرك مثلهم حذو القذة بالقذة سواءً بسواء.

وفي الحديث الثاني الشاهد في قوله: "ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان".

الحي يعني القبيلة ومعنى يلحق: يتبع، إما بأن يذهبوا إلى بلادهم ويسكنوا معهم ويكونوا من دولتهم وإما أن يبقوا في بلاد المسلمين ولكن يكونون على منهج المشركين، وقد وقع كما أخبر عليه السلام، ففيهم من ذهب إلى بلادهم وصار يوافقهم في أمور دينهم ويجري عليه حكمهم مختاراً للإقامة بينهم، وفيهم من بقي في بلاد المسلمين لكن يعتنق مذاهب المشركين من شيوعية

وبعثية وقومية وغير ذلك فلحقوا بالمشركين في قلوبهم وعقائدهم وإن لم يلحقوا بهم في أبدانهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الباب الرابع والعشرون
باب ما جاء في السِّحر

وقول الله تعالى: {**وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ**} [البقرة:102]. وقوله: {**يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**} [النساء:51].

قال عمر: الجبت: السِّحر، والطاغوت: الشيطان، وقال جابر: الطواغيت: كُهّان، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "اجتنبوا السبع الموبقات" قالوا: يا رسول الله، وما هنّ؟ قال: "الشرك بالله والسّحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات".

وعن جندب مرفوعاً:

"حد الساحر: ضربة بالسيف" (رواه الترمذي)، وقال: الصحيح أنه موقوف[10].

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحرٍ وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر.

وصح عن حفصة: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت، وكذا صح عن جندب.

قال أحمد: "صح عن ثلاث من أصحاب النبي ﷺ".

الشرح:

مناسبة هذا الباب للأبواب قبله أن الشيخ في الأبواب السابقة ذكر أنواعاً من الشرك. والسحر نوعاً منها لأن السحر لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق الشياطين بالخضوع لهم وعبادتهم وهذا شرك بالله عز وجل.

---

[10] صحّ موقوفاً كما قال الترمذي، ولا يصحّ مرفوعاً، انظر الضعيفة رقم (1446).

والسحر شرعاً معناه: عزائم ورقى وعُقد يؤثر في بدن المسحور بالقتل أو المرض، أو الإخلال بعقله، أو يفرق بين الزوجيْن، أو بأخذ الزوج عن زوجته فلا يستطيع الوصول إليها. قال تعالى: {**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**} [الفلق:4]، وهم السواحر، فالساحر يعقد بالخيط ثم ينفخ فيها من ريقه ويستغيث بالشيطان وهذا يؤثر بالمسحور بإذن الله إما قتلاً أو مرضاً أو تفريقاً بين الزوجين وإما يمنع الزوج من الوصول لزوجته.

وقد سُحر النبي وأثر فيه السحر وصار عليه الصلاة والسلام يخيّل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله، ورقاه جبريل عليه السلام فبرئ بإذن الله والنبي بشر يجري عليه ما يجري عليهم من الأمراض والسّحر من الأمراض.

فالسحر له حقيقة ويؤثر في بدن المسحور، ولكنه لا يؤثر به إلا بإذن الله القدري، قال تعالى: {**وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ**} [البقرة:102].

والسحر نوعان: إما أن يكون سحر حقيقي وهو الذي ذكرناه ويؤثر في بدن المسحور، وإما أن يكون تخييلي ليس له حقيقة، فالساحر يخيّل للناس شيئاً وهو ليس حقيقة، كأن يخيّل للناس أن دخل في النار وليس كذلك، أو يخيّل للناس أنه يمشي على الحبل وليس كذلك أو يخيل لهم أن السيارة تمشي على بطنه وليس كذلك، وإنما يؤثر الساحر في أبصار الناس كما قال تعالى: {**قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**} [طه:66]، والسحر كله محرم سواءً كان حقيقي أو تخييلي.

وفي هذا الباب ذكر الشيخ نوعيْن من النصوص: نصوص في حكم الساحر ونصوص في حكم السحر، وقد دلّت على أن الساحر كافر وأن السحر كفر، والعياذ بالله، وقد قتل الصحابة الساحر وما قتلوه إلا لكفره، وقد دلّت الآثار أنه يُقتل ولا يُستتاب.

قال المصنف رحمه الله وقوله: {**يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**}، قال عمر: الجبت: السحر والطاغوت: الشيطان.

قوله، قال جابر: "الطواغيت: كُهّان تنزل عليهم الشياطين في كل حي منهم واحد".

الكاهن هو الذي يدّعي علم الغيب، وكانوا في الجاهلية يتخذون حكاماً مِن الكهان يحكمون بين الناس، وكان هؤلاء الكهان تنزل عليهم الشياطين التي تسترق السمع كما قال تعالى: {**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ**} [الشعراء: 221 – 223]، وكما جاء في الحديث أن مسترق السمع قد يسمع الكلمة من السماء فيلقيها على الكاهن، فيكذب الكاهن معها مائة كذبة، فيصدّقه الناس بسبب هذه الكلمة التي سُمعت من السماء.

وقد جاء في الحديث: "من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ".

فليتنبّه هؤلاء الجهّال الذين يذهبون إلى الكهان والمشعوذين والدجّالين سواءً كان للعلاج أو السؤال عن الأشياء الضائعة أو الغائبة فإن هذا كفرٌ بما أنزل الله سبحانه وتعالى.

نسأل الله العافية

الباب الخامس والعشرون
باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد:

حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، حدثنا حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قُبيصة، عن أبيه أنه سمع النبي قال: "إن العيافة والطَّرْق، والطيرة من الجبت"[11].

قال عوف: العيافة زجر الطير.

والطَّرْق: الخط في الأرض.

والجبت: قال الحسن: رنة الشيطان (إسناده حسن)

ولأبي داود والنسائي، وابن حيان في صحيحه، المسند منه، وعن ابن عباس، رضي الله عنهما قال: قال رسول الله : "من اقتبس شُعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد" (رواه أبو داود، وإسناده حسن)

وللنسائي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه:

"من عقد عقدةً ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلّق شيئاً وُكِل إليه"[12].

وعن ابن مسعود، أن رسول الله قال: "ألا هل أنبئكم ما العَضَه؟ هي النميمة: القالة بين الناس" (رواه مسلم).

ولهما عن ابن عمر، أن رسول الله قال: "إنّ من البيان لسحرا".

الشرح:

بيّن الشيخ رحمه الله في الباب الذي قبل هذا ما جاء من الأدلة في كتاب الله وسنة رسوله في حكم السحر وحكم الساحر فتطلعت الأنظار إلى أن يعرف الناس ما هو السحر، وما هي أنواعه حتى يتجنبوه.

---

[11] الحديث فيه ضعف. انظر ضعيف الترغيب رقم (1794).

[12] ضعيف، انظر ضعيف الترغيب رقم (1788).

قوله: "العيافة: زجر الطير" ومعناه: التشاؤم بأصواتها وأسمائها ومسارها. "والطرق: الخط، يخط في الأرض" ذلك من أجل استطلاع الأمور الغائبة.

قوله: "قال الحسن" هو الحسن البصري إمام التابعين، "الجبت: رنة الشيطان" أي: صوت الشيطان ويشمل أشياء كثيرة منها: الأغاني والمزامير، قال تعالى: {**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ**} [الإسراء: 64]، وكذلك كل كلام باطل وكل كلام كفر أو شرك هو صوت الشيطان، فالعيافة والطرق والطيرة من أنواع السحر.

قوله : "من اقتبس شعبة" يعني من تعلّم طائفة أو قطعة "من النجوم" يعني من علم التنجيم والتنجيم معناه: اعتقاد أن النجوم تؤثر في الكون ولا تزال آثار هذه الخصلة الجاهلية في عصرنا الحاضر ويظهر ذلك عند المنجمين والذين يذهبون إليهم، ويظهر بما يكتب في بعض الصحف والمجلات من أحوال البروج لأن نسبة الأمور للنجوم في طلوعها أو غروبها أو إلى الأفلاك في تحركها شرك بالله عز وجل. لأن الله هو الذي يسير ويدبر هذه النجوم والأفلاك وهي مخلوقات ليس لها دخل في إحداث شيء، فالله هو وحده المدبر لكل شيء.

وقوله: "ومن سحر فقد أشرك" هذا هو الشاهد من الحديث أن من أنواع الشرك: عقد العقد والنفث فيها بقصد السحر. وقوله: "ألا هل أنبئكم مع العَضَه"، **والعَضَه:** السحر، ثم قال في الجواب: "هي النميمة" وهذا لبيان خطر النميمة، فالنميمة أشد تأثيراً من السحر، لأنها تفرّق بين المسلمين، والسحر إنما يؤثر فيمن وقع عليه السحر (المسحور)، والنميمة معناها: نقل الحديث بين الناس على وجه الوشاية والإفساد.

وفي الحديث الصحيح: "لا يدخل الجنة نمّام" إلا أن النمام ليس له حكم الساحر، فلا يكفر كما يكفر الساحر.

وقول النبي : "إن من البيان لسحرا".

والبيان هو: البلاغة والفصاحة.

فإن استعمل هذه القوة البيانية في الخير والدفاع عن الحق، والرد على الباطل فهو مأجور، أما إذا استعملها بغير ذلك في نصرة الباطل وهدم الحق فهو آثم، وهذا هو المذموم، وقد ضل كثير من الخلق بسبب هؤلاء الدعاة البلغاء المنحرفين في الإذاعات والفضائيات ومن مثلهم في الصحف أو فوق المنابر أو على مدرجات الجامعات، فإذا تكلموا استمالوا الناس بفصاحتهم وبلاغتهم فيملأون أدمغتهم بكلامٍ مزوّر فلا يتركوهم إلا وهم يبغضون الحق ويحبون الباطل – والعياذ بالله – وهذا هو السحر.

الباب السادس والعشرون
باب ما جاء في الكُهان ونحوهم

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: "من أتى عرّافاً فسأله عن شيءٍ فصدَّقَهُ، لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "من أتى كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ" (رواه أبو داود).

وللأربعة والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة قال: "من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ"، ولأبي يعلى – بسند جيد – عن ابن مسعود مثله موقوفاً.

وعن عمران بن حُصين، مرفوعاً: "ليس منا مَن تطيّر أو تُطيّر له، ومن أتى كاهناً فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ" (رواه البزار بإسناد جيد).

ورواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: "من أتى..." إلى آخره.

قال البغوي: "العرّاف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العرّاف: اسم للكاهن والمنجم والرّمّال ونحوهم، وممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

وقال ابن عباس – في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم – ما أرى مَن فعل ذلك له عند الله من خلاق.

الشرح:

أخطأ الشيخ – رحمه الله – في الحديث الأول؛ فلفظة "فصدّقه بما يقول" ليست في صحيح مسلم وإنما هي في مسند الإمام أحمد وهي لا تصح لا سنداً ولا متناً. وإنما الحديث الذي في صحيح مسلم فلفظه "من أتى عرّافاً لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً".

والحاصل أن مجرّد إتيان العرّاف ولو لم يصدّقه جريمة كبيرة ولو لم يصدقه. ولا تُقبل صلاة من أتى عرّافاً أربعين يوماً وهذا يدل على شدة العقوبة، فصلاة من يأتي العراف لا تٌقبل عند الله ولا ثواب له عند الله فيها، وهذا وعيد شديد لمن أتى العرّاف ولو لم يصدقه.

أما إذا صدّق العرّاف بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد والعياذ بالله، وفي الأحاديث دليل على وجوب تكذيب الكُهّان ونحوهم، وأن لا يقع في نفس الإنسان أدنى شك في كذبهم، فمن صدّقهم، أو شك في كذبهم أو توقّف، فقد كفر بما أنزل على محمد ، لأنه يجب الجزم بكذبهم.

قال الشيخ رحمه الله:

"وقال ابن عباس في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم"، المراد بها: حروف الجُمل، التي هي: (أبجد هوّز حطّي كَلَمُن) إلى آخره، وهي حروف مقطعة يكتبونها لتمييز الجُمَل، والمشعوذ إذا كتب هذه الحروف قال: يحدث كذا وكذا ويكون كذا، وهذه في الحقيقة إنما هي طلاسم، ومَن فعل ذلك ليس له عند الله خلاق كما قال ذلك فيهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "ما أرى مَنْ فَعَلَ ذلك له عند الله من خلاق".

والحاصل، أن هذا بابٌ عظيم، فهو يعالج أمراضاً اجتماعية واقعة في عالمنا الإسلامي في هذا الزمان. فيجب على طلبة العلم أن يتنبهوا لهذه الأمور، ويقوموا بتحذير العامة منها، وإنكارها لأن أكثر الناس سذّج لا يعرفون هذه الأمور فيغررون بها.

الباب السابع والعشرون
باب ما جاء في النُّشَرة

عن جابر، أن رسول الله ﷺ سُئل عن النُّشرة فقال: "هي من عمل الشيطان" (رواه أحمد بسندٍ جيد، وأبو داود).

وقال: "سُئل أحمد عنها فقال: ابنُ مسعود يكره هذا كله".

في البخاري، عن قتادة، قلتُ لابن المسيب: رجلٌ به طِب أو يُؤخَّذ عن امرأته، أيُحلُّ عنه أو ينُشّر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح؛ فأما ما ينفع فلم يُنهَ عنه".

وروي عن الحسن، أنه قال: "لا يحل السحر إلا ساحر".

قال ابن القيم: "النُشرة: حلّ السحر عن المسحور وهي نوعان: الأول: حلٌ بسحرٍ مثله، وهو الذي من عمل الشيطان وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرّب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يُحب، فيبطل عمله عن المسحور. والثاني: النشرة بالرّقية والتّعوّذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز.

الشرح:

باب ما جاء في النشرة: يعني: من الأحاديث والآثار التي تدل على حكمها في الشرع، وهذا في غاية المناسبة لأن السحر موجود ومن الناس من يُبتلى به ويتضرر به، والله تعالى ما أنزل داءً إلا أنزل له شفاء، عِلمه من علمه وجهله من جهله، فلا بد أن تعرف ما هو الدواء الصحيح للسحر. والنُشرة يعني حل السحر، إما أن تكون من عمل الشيطان وإما بالطرق الشرعية، فعمل الشيطان حل السحر بسحر مثله عن طريق الساحر، وبالطرق الشرعية فإنه يمكن إذا طُبّ الإنسان يعني إذا سُحر لأن الطب هو السحر أو أُخذ عن زوجته يعني مُنع

عن جماعها بسبب السحر، أو غير ذلك من أنواع السحر يمكن أن يُحل عنه أو يُنشّر عنه يعني فك السحر عنه بالطرق الشرعية: الرقية، والأدوية والدعاوى المأثورة وذلك كما يلي: أولاً: الرقية: يمكن حل السحر بالرقية بأن يُقرأ على المسحور من كتاب الله عز وجل، فتُقرأ عليه الفاتحة التي هي أعظم الرقى، ويُقرأ عليه الآيات المتعلقة بالسحر وإبطاله، مثل قوله تعالى في سورة الأعراف: {**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**} [الأعراف: 117- 122].

وفي سورة يونس: {**قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**} [يونس:81].

وفي سورة طه: {**وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى**} [طه:69، 70].

هذه الآيات تُقرأ بقلبٍ حاضر وتوكل على الله سبحانه وتعالى، وحسن ظن به جلّ وعلا واعتقاد أن الله يشفي هذا المريض، ثم على المقروء عليه أن يعتقد هذه العقيدة أيضاً، فيرجو الشفاء من الله، ويثق بالله عز وجل ويتوكل عليه، ويعتقد أن كلام الله جل وعلا فيه الشفاء، فإذا حصل هذا التوجه والتوكل على الله من الرّاقي والمرقي حصلت النتيجة بلا شك ولا ريب، وتتخلف النتيجة إذا تخلّف اعتقاد الإنسان أو غفل عن ذلك.

ثانياً: حل السحر بالتعوذات: وهي الأدعية التي وردت عن النبيّ ﷺ مثل:

1. "أعيذك بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلق".

2. "أعيذك بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عينٍ لامّة".
3. "أعيذك بكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شرّ طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن".
4. "بسم الله أرقيك، مِن كل داءٍ يؤذيك، من شر كل نفسٍ وعين حاسدٍ، الله يشفيك".
5. "بسم الله، أذهب البأس ربّ الناس، واشفه أنتَ الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقَماً".
6. "ربنا الله الذي في السماء، تقدّس اسمك أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا، حوبنا وخطايانا، أنتَ ربّ الطيبين، أنزل رحمةً من رحمتك وشفاءً من شفائك على هذا المرض، فيبرأ بإذن الله"[13].

ثالثاً: الرقية بالأدوية المباحة: وهي أدوية يعرفها الحذاق وأهل التجربة من أهل العقيدة السليمة تنفع بإذن الله بإزالة السحر مع ذكر الله، ومع الرقية ومع التعوذ بالشروط المتقدمة.

والحمد لله رب العالمين.

[13] ورد في حديث ضعيف، انظر ضعيف الترغيب رقم (2013).

الباب الثامن والعشرون
باب ما جاء في التطيّر

وقول الله تعالى: {**أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**} [الأعراف:131]

وقوله: {**قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**} [يس:19].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "لا عدوى ولا طيرة ولا هامّة ولا صَفَر" (أخرجاه).

وزاد مسلم: "ولا نَوء ولا غول".

ولهما، عن أنس، قال، قال رسول الله ﷺ: "لا عدوى ولا طيرة، ويُعجبني الفأل". قالوا: ما الفأل؟ قال: "الكلمة الطيبة".

ولأبي داود – بسندٍ صحيح – عن عُقبة بن عامر، قال: ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ، فقال: "أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك"[14].

وعن ابن مسعود، مرفوعاً: "الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا ...، ولكنّ الله يُذهبه بالتوكل" (رواه أبو داود، والترمذي، وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود).

الشرح:

التطيّر يعني: التشاؤم بالأشياء، واعتقاد أنه يصيب الإنسان منها شيء من السّحر. وأصله مأخوذ من الطير، لأنهم كانوا في الجاهلية إذا خرجوا لحاجة فأول طيرٍ رآه إذا طار شمالاً تشاءم ولم يمضِ، وإذا طار يميناً تيمَّن ومضى ولم يرجع سواءً كانت الحاجة سفراً أو زواجاً أو

---

14 ضعيف: فيه عروة بن عامر وهو مختلفٌ في صحبته وفيه عنعنة حبيب بن أبي ثابت وهو مُدلِّس، انظر رياض الصالحين تخريج الألباني رقم (1686)، وانظر ضعيف أبي داوود رقم (843).

أي شيء. ثم صاروا يتطيرون – يتشاءمون – بكل شيء فيتطيرون بالبقاع وبالآدميين وبالبهائم.
وقوله: "لا طيرة". هذا نفي معناه النهي، ويعني لا تتطيروا. وإذا وجد الإنسان في نفسه شيئاً فلا يمنعه من المضي والعزم وليتوكل على الله تعالى، فإن رجع ولم يمضِ فإن ذلك خلل في العقيدة وضعفُ توكلٍ على الله.
وقوله: "ولا هامّة"، الهامّة: طائر يسمى البومة وكان العرب يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم، ويقولون: البوم لا يقع إلا على خراب، وهذا من عقيدة الجاهلية.
وقوله ولا صَفَر: فيه قولان لأهل العلم. الأول: المراد به شهر صَفَر، فهم في الجاهلية كانوا يتشاءمون بهذا الشهر، فلا يتزوجون فيه ولا يسافرون، ولا يتاجرون ويعتقدون أنه شهرٌ مشؤوم.
الثاني: المراد به مرضٌ يكون في المعدة، يزعمون أنه يُعدي، وكل ذلك منهيٌ عنه أن يتشاءم به. وقوله: "ولا نَوء"، الأنواء: هي النجوم، وكانوا يعتقدون أن نزول المطر وهبوب الريح بسبب طلوع النجوم، وهو اعتقاد جاهلي، فإن هبوب الريح وهطول المطر إنما هو بقضاء الله وقدره ولا دخل للنجوم بذلك.
وقد يكون طلوع النجم علامة لوقت نزول المطر بإذن الله لكن ذلك يكون من ناحية الوقت وليس من ناحية الخلق والإيجاد فيكون طلوع النجوم وقتاً لنزول المطر بإذن الله وليست النجوم نفسها التي سببت نزول المطر.
ولما صلى النبي صلاة الفجر بأصحابه يوم الحديبية على إثر سماء كانت من الليل قال : "أتدرون ماذا قال ربكم؟"، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب". فالذي ينسب الأمطار إلى الكواكب والأنواء مشركٌ بالله.

وقوله ﷺ: "ولا غول" أحد الغيلان والغيلان من أعمال الشياطين؛ فهي تتشكل أمام الناس في الفلوات خصوصاً إذا استوحش الإنسان فيرى الإنسان أمامه ناراً تنتقل أو أصواتاً يسمعها أو غير ذلك. لهذا قال النبي ﷺ: "إذا تغوّلت الغيلان فبادر بالآذان"[15] لأن ذكر الله يطرد الشيطان. فأعمال الشيطان هذه لا تضرّ أحداً إلا بإذن الله وعلاجها الشافي هو ذكر الله.

وقوله ﷺ: "ويعجبني الفأل: تأميل الخير، والطيرة عكس الفأل وهي تأميل الشر". وتأميل الخير حسن ظنٍ بالله وهو مطلوب، وتأميل الشر سوء ظنٍ بالله وهو منهيٌ عنه، فإذا سمع الشخص كلمة طيبة انشرح صدره، أو رأى شخصاً طيباً جاء إليه انشرح صدره وأمّل خيراً وأحسن الظن بالله تعالى وهذا أمرٌ طيب.

فكان الفأل يعجب النبي ﷺ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا سمع اسماً حسناً أو كلمة طيبة أو مرّ بمكانٍ طيب، انشرح صدره ﷺ من حسن الظن بالله تعالى.

ولما أقبل سُهيل بن عمرو في قصة الحديبية ليتفاوض مع النبي ﷺ قال النبي ﷺ لما رآه مُقبلاً: "سُهّل لكم من أمركم" وكان كما ظن النبي ﷺ.

وقد ذكر لنا رسول الله ﷺ علاج ما إذا رأى أحدنا ما يكره فقال النبي ﷺ: "فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتِ بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك".

وحذّرنا عليه الصلاة والسلام من الطيرة، وفي حديث ابن مسعود قال: "الطيرة شرك، الطيرة شرك" (كررها مرتيْن أو ثلاثاً تأكيداً).

وقول ابن مسعود: "وما منا إلا.. ولكن الله يذهبه بالتوكل"، يعني أنه يقع في قلوبنا شيءٌ من الطيرة، لكن المؤمن إذا وقع في نفسه من ذلك شيءُ لا يخاف ولا

---

[15] إسناده ضعيف، انظر الضعيفة رقم (1140).

يتأثر ولا يتصرف تصرفاً مخالفاً بل يتوكل على الله فيُذهب الله عنه ذلك.

فإذا ردّ التطيرُ الإنسانَ عن حاجته فقد أشرك لقوله : "من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك".

وقوله : "الطيرة: ما أمضاك أو ردك"[16]، ما أمضاك: يعني نفّرك من المكان أو من الشخص أو من أي شيءٍ رأيته، وفررتَ منه تأثراً بالطيرة، أو ردّك: يعني عن حاجتك.

وبيّن النبي علاج الطيرة وهو التوكل على الله ثم المضيّ بالحاجة ولا يرجع عنها ثم الدعاء فيقول: "اللهم لا يأتِ بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك".

ويقول: "اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرُك ولا إله غيرك". ومعنى لا خير إلا خيرك: يعني لا يأتي بالخير إلا أنت، ومعنى لا طير إلا طيرك: يعني لا يصيبنا شيءٌ إلا بإذنك وقدرتك ومشيئتك.

---

16 إسناده ضعيف، فيه محمد بن عبد الله بن علاثة وهو مختلفٌ فيه، وفيه انقطاع، وقال أحمد شاكر في (مسند أحمد) (3 / 240): إسناده ضعيف.

الباب التاسع والعشرون
باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه، قال قتادة: "خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها"، فمن تأول غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلّف ما لا علم له به".

وكره قتادة تعلّم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

وعن أبي موسى قال، قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدّق بالسّحر" (رواه أحمد، وابن حيان في صحيحه).

الشرح:

التنجيم معناه: اعتقاد أن للنجوم تأثيراً في الحوادث، وما يجري في هذا الكون، وقول قتادة: "خلق الله هذه النجوم لثلاث: يعني لثلاث حكم وهي:

الأولى: زينة للسماء، قال تعالى: {**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**} [الملك:5]. **والثانية:** رجوماً للشياطين، قال تعالى: {**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا**} [الجن:9] **والثالثة:** علامات يُهتدى به، قال تعالى: {**وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**} [النحل:16]

فمن اعتقد وتأوّل في النجوم غير ذلك أضاع نصيبه من الدين وهذا يقتضي الكفر.

وتعلّم منازل القمر فيه قولان لأهل العلم المنع من باب سد الذرائع. والقول الثاني أنه لا بأس به، وهو يسمى بعلم التسيير وهو قول أكثر أهل العلم، أما الممنوع فهو علم التأثير يعني اعتقاد أن النجوم لها تأثير على مجريات الكون، وهو على أقسام بعضها أشد من بعض، فمن اعتقد أن هذه الكواكب هي التي تُحْدِث الحوادث في

الكون – وهو اعتقاد الصابئة – فهذا كفرٌ وجُحود للخالق، ومن اعتقد أنها تُحدث هذه الحوادث ولكن يعتقد أنها سبباً للتأثير وأما الذي يُحدث هذا الشيء هو الله تعالى، يعني أنها أسباب للتأثير فقط، فهذا أيضاً لا يجوز وهو شركٌ أصغر، لأن الله لم يجعل هذه الكواكب وهذه النجوم أسباباً ولا علاقة لها بما يجري في هذا الكون من موت أحد أو حياة أحد أو نزول مطر أو هبوب رياح وهكذا.

أما من استدل بالكواكب والنجوم على الحوادث المستقبلية فهذا من ادّعاء علم الغيب، ومن الكهانة، ومن السّحر وهو كفرٌ بإجماع المسلمين.

وقوله: "ومصدِّقٌ بالسحر"، فإن السحر من أنواعه التنجيم، ففي الحديث: "من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد" فالتنجيم نوعٌ من السحر، وهو كفرٌ بإجماع المسلمين.

وأخبر النبي أن المصدّق بالسحر – ومنه المصدّق بالنجوم – أنه لا يدخل الجنة وهذا وعيدٌ شديد، فلينتبه من يقرأ الأبراج في المجلات والجرائد لهذا الأمر الخطير، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

الباب الثلاثون
باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالى: {**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**} [الواقعة:82].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله قال: "أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهنّ: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة". وقال: "النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب" (رواه مسلم).

ولهما عن زيد بن خالد، رضي الله عنه قال: "صلى لنا رسول الله صلاة الصبح بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل. فلما انصرف أقبل على الناس فقال: "هل تدرون ماذا قال ربكم؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فهذا مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكواكب". ولهما من حديث ابن عباس معناه وفيه: "قال بعضهم لقد صدق نوء كذا، فأنزل الله هذه الآيات: {**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**} [الواقعة:75– 82].

الشرح:

الاستسقاء بالأنواء يعني: طلب السقيا من النجوم. وهو نوع من أنواع التنجيم (الباب الذي قبل هذا الباب) لكن هذا الباب خاص بالاستسقاء بالنجوم، وقوله: باب ما جاء يعني: ما جاء من الوعيد في الكتاب والسنّة وبيان أن الاستسقاء بالنجوم كفرٌ بالله تعالى لأنه اعتقاد في غير الله في أنه يخلق أو يرزق أو يدبر شيئاً في هذا

الكون، فالله هو الخالق لكل شيء والمدبر لكل شيء كما قال تعالى: {**إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**} [يونس:3] فالله هو الخالق وهو المدبر المتصرف وله الأمر يعني الشرع.

وقول الله تعالى: {**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**} يعني تجعلون رزقكم أي: المطر.

إنكم تكذبون: يعني: تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا، فينسبون المطر إلى الأنواء، وينسبون المطر إلى الطالع من النجوم أو الغارب وهذا كذب، لأن الذي ينزل المطر هو الله سبحانه وتعالى وليس طلوع النجم أو غروبه.

فمن اعتقد أن المطر ينزل بسبب طلوع النجم أو غروبه فهو على التفصيل الذي مرّ في الباب الذي قبل هذا الباب.

الباب الواحد والثلاثون
باب

قول الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [البقرة: 165]. وقوله: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} [التوبة: 24]

عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال:

"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين" (أخرجاه).

ولهما عنه، قال، قال رسول الله ﷺ:

"ثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار".

وفي رواية: "لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى.." إلى آخره، وعن ابن عباس، قال:"من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تُنال ولاية الله بذلك. ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثُرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً" (رواه ابن جرير الطبري).

وقال ابن عباس، في قوله تعالى: {**وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ**} [البقرة:166]. قال: "المودة".

الشرح:

المحبة نوع من أنواع العبادة ومن أحب مع الله غيره فقد أشرك، والمحبة المقصودة هي محبة العبودية التي يكون معها ذلٌ للمحبوب وهذه لا يجوز صرفها إلا لله، أما باقي أنواع المحبة فلا حرج فيها وهي محبة طبيعية مثل

حب الإنسان للطعام والشراب والملذات والشهوات، وكذلك محبة الإجلال مثل محبة الولد لوالديْه غير المشركين، ومحبة الإشفاق مثل محبة الوالديْن لأولادهم، ومحبة المصاحبة كمن يحب شخصاً لكونه زميلاً في العمل أو شريكاً في التجارة أو صاحباً في سفر وهكذا، فهذه الأنواع من المحبة لا حرج فيها لأنه لا يوجد فيها ذل وليس معها خضوع.

والعبادة تتركز على ثلاثة أشياء: المحبة والخوف والرجاء، فإذا اجتمعت هذه الثلاثة فإن العبادة تتحقق ونفعَتْ، وإذا اختلت اختلّت العبادة ولم تنفع.

فالمرجئة يعبدون الله رجاءً والخوارج يعبدون الله خوفاً والصوفية يعبدون الله حباً فقط، لكن أهل السنة والجماعة يحبون الله خوفاً ورجاءً ومحبة، والمشركون يحبون الله ويعترفون بربوبيته وخلقه لهم لكنهم لم يخلصوا المحبة له بل أشركوا معه آلهة أخرى يحبونها مع الله محبة خضوع وذل وتقرُّب إليها بالعبادة، فأصبحوا مشركين بذلك، لكن المؤمنين أخلصوا المحبة لله، فقال تعالى: {**وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ**} [البقرة: 165]. وقوله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم" في الحديث ليس نفياً للإيمان أصلاً وإنما هو نفيٌ لكمال الإيمان، أي: لا يكمل إيمان أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين".

الباب الثاني والثلاثون

باب قول الله تعالى: {**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**} [آل عمران:175] وقوله: {**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ**} [التوبة:18]. وقول الله تعالى: {**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**} [العنكبوت:10].

عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: "إن من ضعف اليقين: أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذُمّهم على ما لم يؤتكَ الله، إنّ رزق الله لا يجره حرصُ حريص، ولا يرده كراهية كاره"[17].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: "من التمس رضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس"(رواه ابن حيان في صحيحه).

الشرح:

هذا الباب عقده الشيخ – رحمه الله – في موضوع الخوف والخوف من الله هو أحد ركائز العبادة الثلاثة وهي المحبة والخوف والرجاء. فلما ذكر المحبة في الباب السابق ذكر الخوف في هذا الباب، ليدل أن المحبة وحدها لا تكفي. والخوف ثلاثة أنواع: خوف السر، الخوف المذموم، الخوف الطبيعي.

- خوف السر: هو الخوف الذي يكون معه عباده لغير الله أو ترك ما أوجب الله كأن يخاف الإنسان من

---

[17] حديث ضعيف، وقد أشار الشيخ الفوزان – رحمه الله – لذلك، انظر الضعيفة رقم (1482).

الأصنام والأوثان ومن القبور والأضرحة أو الشياطين والجن فيتقرب إليهم بما يحبونه – من الشرك – خوفاً منهم فهذا شرك أكبر يخرج من الملة.

- الخوف المذموم: وهو أن يترك الإنسان ما أوجبه الله عليه من الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً من أذى الناس وأن يضايقوه أو يعذبوه، فيترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، فهذا شرك أصغر وهو محرّم، وقد جاء في الحديث: "إن الله يحاسب العبد يوم القيامة: لمَ لمْ تأمر بالمعروف وتنهَ عن المنكر؟ فيقول: يا رب خشيتُ الناس، فيقول: إيايَ أحقّ أن تخشى"[18].

- الخوف الطبيعي: هذا ليس معه عبادة للمَخوف منه ولا ترك واجب كأن يخاف الإنسان من العدو، أو من الأسد أو من الحيّة وهذا لا يُلام عليه الإنسان لأنه ليس عبادة وليس تركاً لواجب.

وقوله، قال: عن أبي سعيد – رضي الله عنه – مرفوعاً: يعني إلى النبي فالحديث المرفوع ما نسبه الصحابي إلى رسول الله والمرسل الذي نسبه التابعي له عليه الصلاة والسلام، والحديث الموقوف: ما كان من كلام الصحابي.

"إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله"، وهذا مثل قوله تعالى: {**جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**}، فإذا أرضى الناس بسخط الله من المخالفات والمعاصي فهذا من ضعف اليقين، "وأن تحمدهم على رزق الله" يعني من ضعف اليقين أن تنسب الرزق للناس، وإنما يُشكر الناس على قدر سعيهم وعلى ما بذلوا من أسباب الرزق مع الاعتراف أن الرزق من الله والشخص سبب في ذلك، وفي الحديث "من لا يشكر الناس لا يشكر الله".

---

[18] إسناده ضعيف.

"وأن تذمهم على ما لم يؤتكَ الله"، يعني: إذا سعيتَ لطلب شيءٍ محبوب من أمور الدنيا، ولم تحصل عليه فلا تذمّ الناس لأن هذا بيد الله وليس بأيدي الناس، فلو شاءه الله لك لحصل لك، وربما يكون امتناع الشيء لصالحك وأنت لا تدري ما الخيرة، فأنت تبذل السبب فإن حصل المطلوب فالحمد لله، وإن لم يحصل المطلوب فإنك ترضى عن الله تعالى وتحمده وتحاسب نفسك على التقصير، وتعلم أنك ما حُرمت هذا الشيء إلا لأحد أمريْن: إمّا أنك مقصرٌ في حق الله تعالى فحرمك الله بسبب ذنوبك أو أن الله منعه لمصلحتك لأنه لو جاءك لسبّب لك شراً.

ثم قال: "إن رزق الله لا يجرّه حرصُ حريص، ولا يرده كراهية كاره"، فالحرص لا يجلب المطلوب إذا لم يقدّره الله، ولا يَردُّ كراهية كاره ما أراده الله. كما في الحديث "واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك"، إذاً علّق قلبك بالله سبحانه وتعالى، وأحسن المعاملة مع الله، وهذا هو حقيقة التوحيد، أن يكون العبد معتمداً على الله ومتوكلاً عليه، ويعتقد أن الناس مجرد أسباب، والأسباب إن شاء الله نفعت وإن شاء لم تنفع، فلا يجعل الحمد والذم للناس، وإنما يجعل الحمد لله سبحانه وتعالى وأن يصبر إذا لم يحصل المطلوب لأنه قدَر الله تعالى ومشيئته، ولا يعني هذا عدم الحرص على طلب الخير، قال النبي ﷺ: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله"، فجمع بين الأمريْن: الحرص والاستعانة.

وحديث أبي سعيد هذا رواه أبو نعيم في "الحلية" ورواه البيهقي وهو حديث ضعيف، ولكن الشيخ – رحمه الله – من قاعدته أن لا يذكر الحديث الضعيف إلا إذا كان له ما يؤيده وقد أيّد هذا الحديث الآية التي قبله وهي قوله تعالى: {**فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**}.

وحديث عائشة رضي الله عنها فيه: أن الإنسان يقدم خشية الله على خشية الناس، ويقدم رضا الله على رضا الناس، فإذا جمعت هذه الآيات وهذه الأحاديث دلّت على أن الخوف عبادة يجب إفرادها لله تعالى.

الباب الثالث والثلاثون
باب

قول الله تعالى: {**وَعَلَى اللّـهِ فَتَوَكَّلُـواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**} **[المائــدة:23]**. وقولــه: {**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُــونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِــرَ اللّـــهُ وَجِلَتْ قُلُــوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُـهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ**} [الأنفــال:2]. وقولــه: {**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْــبُكَ اللّــهُ**} [الأنفــال:64]. وقوله تعــالى: {**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**} [الطلاق:3].

عن ابن عباس، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: "إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً" (رواه البخاري والنسائي)

الشرح:

التوكل: هو التفويض، فالتوكل على الله هو تفويض الأمور إليه سبحانه وتعالى، وهو من أعظم العبادات، فمن توكّل على غيره فقد أشرك بالله.

قوله: {**وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**} فالمؤمن لا يتوكل إلا على الله، وهذا هو محل الشاهد حيث قدم المعمول من الجار والمجرور وأخّر العامل مما يفيد الحصر، أي توكلوا على الله ولا تتوكلواعلى غيره.

الحاصل أن التوكل عبادة عظيمة لا يجب صرفها لغير الله، فمن صرفها لغير الله فقد أشرك، والتوكل شرط لصحة الإيمان، قال تعالى: {**وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**}**.** وهذا لا يعني أن الإنسان يتواكل ولا يأخذ بالأسباب فالأخذ بالأسباب واجب.

الباب الرابع والثلاثون

باب

قول الله تعالى:{أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف:99].

وقوله: {**قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ**} [الحجر:56].

وعن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ سُئل عن الكبائر فقال: "الإشراك بالله، واليأس من روْح الله، والأمن من مكر الله".

وعن ابن مسعود، قال: "أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله واليأس من روْح الله" (رواه عبد الرزاق).

الشرح:

الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته ينقصان التوحيد وينافيان كماله، ولذلك عقد الشيخ – رحمه الله – هذا الباب.

ومكر الله سبحانه وتعالى هو: إيصال العقوبة إلى من يستحقها من حيث لا يشعر، وهذا عدلٌ منه سبحانه وتعالى، فالمكر في حق الله سبحانه وتعالى عدلٌ وجزاءٌ يُحمد عليه، أما المكر بحق المخلوقين فهو مذموم، لأنه بغير حق، والمكر مثل الاستهزاء: {**اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**} [البقرة:15]، ونظير السخرية: {**فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ**} [التوبة:79] ، ونظير الكيد: {**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا**}[الطارق:15 و16]، ونظير النسيان: قال تعالى: {**نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ**} [التوبة:67] ، فكل هذه الأمور تُنسب لله جل وعلا، لأنها من باب المقابلة والجزاء، فهي عدلٌ منه سبحانه، بخلاف هذه الصفات من المخلوقين فإنها مذمومة، لأنها في غير محلها ولأنها ظلمٌ للمخلوقين.

قوله: {**أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ**}، هذا هو موضع الشاهد، فهو استفهام استنكار على من يقع منه مثل ذلك لأن الأمن من مكر الله يستلزم عدم الخوف من الله سبحانه

وتعالى، ويستلزم الاستمرار في المعاصي والزيادة منها ويستلزم ترك التوبة والرجوع إلى الله عز وجل. وهذه حالة الأشقياء من الخلق، والأمن من مكر الله ينافي التوحيد لأنه يستلزم عدم الخوف من الله عز وجل.

وقوله: {**قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ**} هذا محل الشاهد في الآية الثانية، أي: لا أحد يقنط من رحمة ربه إلا الضالون عن الحق، وفي هاتيْن الآيتيْن مشروعية الجمع بين الخوف والرجاء، فيجب الخوف من الله وعدم الأمن من مكره سبحانه لكن يجب أيضاً عدم القنوط من رحمة الله تعالى.

يقول العلماء: من عبد الله بالخوف فقط فهو حروري يعني من الخوارج لأنهم يأخذون بآيات الوعيد ويخرجون العاصي من الإسلام ويخلّدونه في النار، وهذا يأسٌ من رحمة الله، نسأل الله العافية.

ومن عبد الله بالرجاء فقط فهو مرجئ، لأن المرجئة يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهذا فيه أمن من مكر الله عز وجل.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم يجمعون بين الخوف من الله والرجاء - رجاء رحمة الله - فالخوف يمنعهم من المعاصي ورجاء رحمة الله يحملهم على التوبة والاستغفار والندم على ما قصروا فيه، قال تعالى: {**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**} [الأنبياء: 90]، فالرغب هو الرجاء والرهب هو الخوف، وقال تعالى: {**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**} [الإسراء: 57]، قوله ﷺ: "واليأس من روح الله" هو من أكبر الكبائر لأن في القنوط واليأس من رحمة الله إساءة الظن بالله سبحانه وتعالى ويحمل صاحبه على عدم التوبة والله تعالى يقول: {**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**} [الزمر: 53]، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، قال تعالى: {**قُل لِلَّذِينَ**

كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال: 38] هذا للكفار، فكيف للعصاة من المسلمين إذا تابوا؟

وقوله: "والأمن من مكر الله"، وهو أيضاً من أكبر الكبائر وسبق الشرح.

الحاصل، أن الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته من أكبر الكبائر، وأنهما ينقصان كمال التوحيد وقد ينافيانه، وأنه يجب على المؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء ويغلّب الخوف على الرجاء، إلا عند ساعة الموت فإنه يغلّب الرجاء على الخوف، والحمد لله رب العالمين.

الباب الخامس والثلاثون
باب من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله

وقول الله تعالى: {**وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**} الآية [التغابن:11]

قال علقمة: "هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلّم".

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت".

ولهما عن ابن مسعود، مرفوعاً: "ليس منا من ضرب الخدود، وشقّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية".

وعن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: "إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له بالعقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافى به يوم القيامة".

وقال النبي ﷺ: "إنّ عِظَم الجزاء من عِظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط" (حسنه الترمذي).

الشرح:

الصبر لغة: الحبس، وأما في الشرع: فهو حبس النفس على طاعة الله تعالى وترك معصيته.

وذكر العلماء أن الصبر ثلاثة أنواع: صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن محارم الله، وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة، والنوع الأخير يُقسم إلى ثلاثة أنواع:

الأول: حبس النفس عن الجزع.

الثاني: حبس اللسان عن التشكّي لغير الله.

الثالث: حبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.

ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "الصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، فلا إيمان لمن لا صبر له".

وقوله تعالى: {**وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**} الآية، وهي: {**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**}.

وفسرها التابعي الجليل علقمة النخعي بأنه الرجل تصيبه المصيبة إما في نفسه أو ماله أو ولده فلا يجزع لأنه يعلم أنها لم تحصل إلا بإذن الله وقَدَرِهِ فيرضى عن الله ويؤمن بِقَدَرِه، فيصبر ويسلّم ولا يجزع ويسخط.

وسمّى الله هذا الرضى إيماناً، فقال: {**وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ**} يعني يرضى بقضائه ويسلم، وهذا هو الشاهد، أما الذي يجزع فإن الله يسبب عمى قلبه والاضطراب بنفسه بدلاً من هدايته وهداية قلبه.

وفي الحديث بيّن النبي أن خصلتان في الناس هما بهم كفر، **الخصلة الأولى:** الطعن في الأنساب.

والخصلة الثانية: وهي موضع الشاهد، النياحة على الميت، يعني إظهار الجزع على الميت، والمطلوب هو الصبر على موت الأقارب والأحباب لأنه من أقدار الله، ولا يمنع هذا أن الإنسان يتألم ويبكي ولكن لا يقول إلا ما يُرضي الله، والنبي بكى على ابنه إبراهيم وقال: "إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون".

وقوله: "ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية". رفع هذا ابن مسعود إلى النبي ، وكلمة "ليس منا" هذه كلمة كثيراً ما تأتي عن النبي على معاصٍ تصدر من الناس، وهذا من باب التحذير وليس معناها: البراءة ممّن فعل ذلك، وليس معناها أنه يخرج من الإسلام ولكن معناها: التنفير من هذا العمل وأحسن ما قيل فيها: أنها من ألفاظ الوعيد ولا تفسّر مع اعتقاد أن هذا لا يدل على الخروج من الدين لوجود أدلة أخرى أن أصحاب الذنوب والكبائر التي دون الشرك لا يخرجون من الدين.

الحاصل، أن الإنسان يصبر ولا يجزع فهو من الإيمان، وعدم الصبر من منقصات التوحيد، والحمد لله رب العالمين.

الباب السادس والثلاثون
باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى: {**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**} [الكهف:110] وعن أبي هريرة، مرفوعاً، قال الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من يعمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه" (رواه مسلم).

وعن أبي سعيد مرفوعاً: "ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح الدجّال؟ قالوا: بلى، قال: الشرك الخفي: يقوم الرجل فيزيّن صلاته، لما يرى من نظر رجل إليه" (رواه أحمد).

الشرح:

الرياء شركٌ غير ظاهر وهو شركٌ أصغر وهو من أعمال القلوب، فالشرك إما أن يكون ظاهراً أو خفيّاً، ظاهر كالذبح لغير الله، والخفيّ أن يزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه، وهو عملٌ لا يظهر، وهو شركٌ أصغر.

والرياء مأخوذ من الرؤيا، بأن يزيّن العمل من أجل أن يراه الناس ويمدحوه عليه، أما السمعة لما يسمع من الأقوال التي ظاهرها لله، والقصد منها لغير الله كأن يقرأ القرآن أو يعظ، وقصد المتكلم أن يسمع الناس كلامه فيثنوا عليه، والرياء يكون شركٌ أكبر إذا كان الإنسان يقصد بجميع أعماله مراءاة الناس ولا يقصد وجه الله أبداً، وإنما يقصد العيش مع المسلمين، وحقن دمه، وحفظ ماله وهذا هو رياء المنافقين.

ولكن الرياء قد يصدر من المؤمن في بعض أعماله وهو أن يكون العمل فيه قصدٌ لله وقصدٌ لغير الله، وهذا شركٌ أصغر، وهذا النوع له ثلاث حالات:

الأولى: إذا كان الرياء مقصوداً في العمل من أوله، واستمر معه إلى آخره، فهذا عمل مردود، لا يقبله الله تعالى، وذلك كمن صلى وهو يحب أن يُمدح واستمر معه الرياء إلى آخر صلاته، فهذا لا تُقبل صلاتـه.

الثانية: أن يكون أصل العمل لله ثم يطرأ عليه الرياء، فهذا إن تاب منه صاحبه في الحال ودفعه وأخلص العمل لله فإنه لا يضرّ صاحبه قولاً واحداً.

الثالثة: أن يطرأ الرياء في أثناء العمل ويستمر معه، فهذا فيه خلاف بين العلماء، فمنهم من قال: إنه يحبط العمل، ومنهم من قال: إنه يُثاب على قدر نيته لله في هذا العمل.

ثم ذكر الشيخ الآية الأخيرة من سورة الكهف وفيها: أن العمل لا يكون صالحاً ومتقبلاً عند الله إلا بشرطيْن:

- الشرط الأول: الإخلاص لله عز وجل من الرياء والسمعة ومن جميع أنواع الشرك.

- الشرط الثاني: أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ، خالياً من البدع والمحدثات والخرافات.

أما حديث أبي هريرة فهو حديث قدسي وهو ما كان لفظه ومعناه مروياً عن الله، والحديث النبوي ما كان معناه من الله ولكن لفظه من النبي .

والحديث قال الله: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فالمخلوقات كلها محتاجة إلى الله والله غير محتاج لأحد وهو غنيّ عن عبادة خلقه وقد أمر الله العباد بعبادته لمصلحتهم هم، فإن عبدوا معه غيره تركهم وعبادتهم، فهو غنيٌ عنهم وعن الشرك.

والشاهد من الباب: أن الرياء نوعٌ من الشرك، يرد العمل الذي خالطه على صاحبه ولا يقبله الله.

نعوذ بالله من السمعة والرياء

الباب السابع والثلاثون
باب من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقول الله تعـالى: {**مَنْ كَانَ يُرِيـدُ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا**} **[هود: 15].**

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: "تعِس عبـــدُ الـــدينار، تعِس عبد الـــدرهم، تعِسَ عبد الخميصـــة، تعِسَ عبد الخميلة إن أعطي رضـــى، وإن لم يعط سخِط، تعِسَ وانتكس، وإذا شيك فلا انتقَش، طــوبى لعبد آخذ بعنــان فرسه في ســبيل اللــه، أشــعث رأســه، مغـبرةٌ قـدماه، إن كـان في الحراسة كـان في الحراسـة، وإن كــان في الســاقة كــان في الســاقة، إن اســتأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع".

الشرح:

قوله: **"باب من الشرك":** المراد الشرك الأصغر، وقوله: **"إرادة الإنسان بعمله الدنيا":** معناه أن يعمل العمل الذي شُرع للآخرة وهو لا يريد به إلا طمع الدنيا، كأن يجاهد من أجل المغنم، أو يتعلّم من أجل الرئاسة والوظيفة، أو يحجّ أو يعتمر من أجل التجارة أو المال، .. وهكذا.

وقوله تعالى: {**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**} أي: من كان يقصد بعمل الآخرة عرض الدنيا {**وَزِينَتَهَا**} زينة الدنيا: المال والولد كما قال الله تعالى: {**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**} [الكهف:46].

وقوله تعالى: {**نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا**}، هذا جواب الشرط، أي: نعطه من الدنيا ما أراد منها استدراجاً له، ومعامله له بما قصد، ولكن عاقبتهم كما قال تعالى: {**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**} [هود:16] والعياذ بالله.

سُئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن هذه الآية: {**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا**}، قال: إنها تشمل أنواعاً:

النوع الأول: المشرك والكافر الذي يعمل أعمالاً صالحة في هذه الدنيا من إطعام الطعام وإكرام الجار، وبر الوالديْن والصدقات والتبرعات وجميع وجوه الإحسان، فهذا لا يؤجر على ذلك في الآخرة لأنها لم تبْنَ على التوحيد؛ فيُجازى بها في الدنيا وليس له في الآخرة إلا النار.

النوع الثاني: المؤمن الذي يعمل أعمالاً من أعمال الآخرة، لكنه لا يريد بها وجه الله وإنما يريد بها طمع الدنيا، كالذي يحجّ ويعتمر عن غيره يريد أخذ العِوض والمال، وكالذي يتعلّم العلم الشرعي من أجل أن يحصل على وظيفة، فهذا عمله باطلٌ في الدنيا، وحابطٌ في الآخرة، وهو شركٌ أصغر.

النوع الثالث: مؤمن عمل العمل الصالح مخلصاً لله عز وجل لا يريد به مالاً أو متاعاً من متاع الدنيا ولا وظيفة، لكن يريد أن يجازيه الله به، بأن يشفيه الله من المرض، ويدفع عنه العين والأعداء، فإذا كان هذا هو قصده فهذا قصدٌ سيء ويكون عمله هذا داخلاً في قوله تعالى: {**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ**}.

والمفروض في المسلم: أن يرجو ثواب الآخرة، ويرجو أعلى مما في الدنيا، وتكون همّته عالية، وهو إن فعل ذلك أعانه الله على أمور الدنيا ويسّرها له، قال تعالى: {**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**} [الطلاق:1-3].

النوع الرابع: من يعمل أعمالاً صالحة ثم يفسدها بالشرك، كأن يدعو غير الله من الموتى وأصحاب الأضرحة، كما عليه كثير من المنتسبين للإسلام اليوم.

قوله وفي الصحيح: يعني صحيح البخاري في باب الجهاد **"تَعِسَ"**، يعني: هَلَكَ. قوله: "تعِس عبدُ الدينار، تعِس عبد الدرهم"، **الدينار هو:** النقد المضروب من الذهب. **والدرهم هو:** النقد المضروب من الفضة.

قوله **عبد "الخميصة":** كساءٌ يُلبس، لونه أسود وفيه خطوطٌ حُمر. وقوله: **عبد "الخميلة":** قطيفة ذات أهداب. وسمّاهم عبيداً لهذه الأشياء لأنهم يعملون لها، أما الذي يعمل لأجل الله فهو عبدٌ لله تعالى.

قوله: **"تعِس وانتكس"** يعني: كلما تماثل للشفاء عاد إليه المرض وعاد إليه الهلاك. وقوله: **"وإذا شيك فلا انتقَش"** يعني: أنه يُصاب بالعجز حتى إذا ضربته الشوكة في رجله أو في يده لا يستطيع أخذها من العجز الذي أصابه عقوبةً له في أنه يعمل من أجل الدنيا.

ثم بيّن في باقي الحديث الفرق بين من يعمل لهذه الأشياء، وبين من يعمل لله، فدعا له رسول الله فقال: طوبى لعبدٍ إلى آخر الحديث.

صفات هذا العبد أنه أشعث رأسه، مغبرةٌ قدماه، لا يهتم أين يكون في الحرب في الحراسة أو في الساقة لأنه لا يريد العز في الدنيا والظهور والبروز أمام الناس لكن يريد الجهاد في سبيل الله على أي سبيل كان ما دام أن هذا جهاد في سبيل الله. ومن صفاته أنه إذا استأذن لم يؤذن له فهو غير معروف عند الناس فهو غير معروف لأنه لا يحب الظهور والبروز، ولا يحب المدح بل يحرص على الاختفاء لأنه يعمل لله ولذلك إذا استأذن للدخول على ولاة الأمر والسلاطين أو على أصحاب الجاه، لم يؤذن له ولكن هذا لا يضرّه عند الله، لأن الله يعلمه ويعلم مكانه، ومن صفات هذا العبد أيضاً أنه إذا شفع لا يشفع يعني إذا توسط في قضاء حاجة أحد، لم تُقبل وساطته، فهو إنسان ماله هيئة عند الناس، منظره ليس منظر صاحب هيئة، ومخبره أيضاً غير معروف عند الناس، لكنه عند الله عزيز فهو يعمل لله بإخلاص، فهذا وإن كان مدفوعاً بالأبواب عند الناس إلا أنه لو حلف على الله أن يعطيه لأعطاه، وفي الحديث: "رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه".

الباب الثامن والثلاثون
باب
من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلّ الله
أو تحليل ما حرّمه الله، فقد اتخذهم أرباباً

وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون قال أبو بكر وعمر؟!

وقال أحمد بن حنبل: عجبتُ لقومٍ عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان واللهُ تعالى يقول: {**فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**} [النور:63].أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعله إذا ردّ بعض قوله، أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

وعن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: {**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ**} [التوبة:31].

فقلتُ له: إنا لسنا نعبدهم، قال: "أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه ويحلّون ما حرّم الله فتحلونه" فقلت بلى، قال: "فتلك عبادتهم". (رواه أحمد والترمذي وحسنه).

الشرح:

لما كان التحليل والتحريم حقٌ لله تعالى لا يشاركه فيه أحد، فإذا حلّل الإنسان أو حرّم شيئاً من غير دليلٍ من كتاب الله أو سنّة رسوله ﷺ فقد جعل نفسه شريكاً لله، ومن أطاعه فقد أشركه مع الله في التشريع.

وهذا يسمى بشرك الطاعة، لأن **العبادة معناها:** طاعة الله سبحانه وتعالى بفعل أوامره وترك نواهيه.

وقول ابن عباس هذا في غاية الأهمية فهو تأصيل وتقعيد لا بد من فهمه وإدراكه وإعماله في كل ما يتم

التنازع فيه، وهو الرجوع إلى الدليل من الكتاب والسنّة وأنه لا يؤخذ بالرأي ولو كان من خليفتيْن راشديْن وأفضل أمة محمد بعد النبي ، فقال ابن عباس هذه المقالة لمّا بلغه أن أبا بكر وعمر – رضي الله عنهما – كانا لا يريان فسخ الحج إلى العمرة، بينما رسول الله أمر بفسخ الحج إلى العمرة لمن لم يسقِ الهدي.

وهذا يدل على أن السنّة هي المنتهى بعد كتاب الله عز وجل، فما قام عليه الدليل أخذناه، وما خالف الدليل تركناه وإن كان قائله من أفضل الناس كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

الباب التاسع والثلاثون

باب

قول الله تعالى: {**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً**} **[النساء:60].** وقوله: {**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**} [البقرة:11]. وقوله: {**وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا**} [الأعراف:56]. وقوله تعالى: {**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**} [المائدة:50].

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به"[19] قال النووي: (حديث صحيح، رُوِّيناه في كتاب (الحجة) بسند صحيح).

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومه، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ عَرَف أنه لا يأخذ الرّشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرّشوة. فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: {**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ**}.

وقيل: نزلت في رجُلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له القصة، فقال للذي لم يرضَ برسول الله ﷺ، أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله.

الشرح:

التحاكم إلى ما أنزل الله هو من التوحيد، والعبادة والتحاكم إلى غيره شركٌ بالله عز وجل وكفرٌ به.

---

19 الحديث في إسناده ضعيف، انظر في إسناده نعيم بن حماد كثير الخطأ، انظر تخريج المشكاة رقم (167).

من معنى (لا إله إلا الله)، ومن مقتضاها ومدلولها: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، ومن تحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله فإنّه قد أخلّ بكلمة التوحيد فأخلّ بمقتضى (لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله).

فلا بد أن نحكّم كتاب الله وسنة رسوله ونأخذ ما دلّ عليه الدليل ولا نتعصّب لرأي إمام، وإلا لم نكن متحاكمين لما أنزل الله وإنما متحاكمين إلى هذا الإمام، وهو اجتهاد اجتهد فيه فيكون هذا الإمام معذور وله أجر، أما من تعصّب له فيأثم إذا تبيّن له أن ما أنزل الله مخالفاً لما جاء به هذا الإمام. والأئمة أنفسهم ينهون أتباعهم أن يأخذوا بآرائهم دون النظر إلى مستندها من كتاب الله وسنة رسول الله ، وإلا كنّا – كما سبق في الباب الذي قبل هذا أطعنا العلماء والأمراء في تحريم ما أحلّ الله وتحليل ما حرّم الله.

وقد نفى الله الأيمان عمّن لم يحكم شرع الله ثم لا يجد حرجاً في الحكم، ثم يسلّم لهذا الحكم، ينقاد إليه راضياً سليم الصدر.

قال تعالى: {**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**} [النساء:65].

ولا بد أن يكون تحكيم الشريعة تعبّداً. طاعة لله ولا يقصد من تحكيمها مجرّد تحقيق الأمن والعدالة بين الناس.

وقول الله تعالى: {**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**}، إفساد الأرض يكون بالمعاصي وإصلاحها يكون بالطاعات، وإقامة شرع الله.

ومن أشد المعاصي التحاكم إلى غير شرع الله وهذا وجه إيراد هذه الآية في هذا الباب، وهو أن تحكيم غير شريعة الله من الإفساد في الأرض، وأن تحكيم شرع الله هو صلاح الأرض. فالمعاصي تُحدث الفساد في الأرض من نضوب المياه، وانحباس الأمطار، وغلاء الأسعار، وظهور

المعاصي والمنكرات، كل هذا فساد في الأرض، ولا صلاح للأرض إلا بطاعة الله عز وجل، ولا عمارة للأرض إلا بطاعة الله عز وجل.

وقوله تعالى: {**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**}.

هذا استنكار من الله سبحانه وتعالى لمن يريد أن يستبدل حكم الله العليم الحكيم الخبير الذي يعلم ما يَصلُح به العباد ويعلم حوائجهم ويعلم العواقب بالقوانين الوضعية التي وضعها بشر.

وقوله تعالى: {**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**} [المائدة: 50]. يعني: لا أحد أحسن من الله حكماً لما تقدّم من الأسباب في شرح الآية السابقة، فحكم البشر ليس فيه حسن أبداً وإنما حكم الله هو الحسن وحده.

قال: "وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به".

قوله: "لا يؤمن أحدكم يعني لا يكون إيمانه كاملاً وليس نفياً للإيمان كله"، حتى يكون هواه يعني: محبته ورغبته تبعاً لما جئتُ به: يعني يحب ما جاء به النبي من الشريعة والكتاب والسنّة، ولا تجد كثيراً من الناس من يتوفّر به ذلك فإن الله يهدِ لنوره من يشاء، نسأله تعالى بأسمائه كلها أن نكون منهم آمين.

فالمؤمن يجب أن يكون محبّاً وراغباً فيما جاء به النبي ، ومبغضاً لما سواه. قال الله تعالى: {**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ**} [القصص: 50]، والله لا أحد أضلّ منه بل هو أضلّ من حمار أهله.

وقال تعالى: {**أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ**} [الجاثية:23]، فمن لا يأخذ بالشرع ويترك ما خالف هواه فقد اتخذ هواه إلهاً من دون الله. قال تعالى: {**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**}.

نسأل الله الهدى

الباب الأربعون
باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

وقوله الله تعالى: {**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**} [الرعد:30].

وفي صحيح البخاري قال علي: "حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذّب الله ورسوله؟".

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه عن ابن عباس: "أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي في الصفات، استنكاراً لذلك! فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رقةً عند محكمة، ويهلكون عند متشابهه". انتهى

ولما سمعتْ قريش رسول الله يذكر: الرحمن أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: {**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**}.

الشرح:

عقد الشيخ رحمه الله هذا الباب لبيان حكم من جحد شيئاً من أسماء الله أو صفاته، وساق الأدلة على هذا الحكم.

قال: وقوله تعالى: "**وَهُمْ**" يعني المشركون.

"**يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**"**:** يعني ينكرون هذا الاسم الكريم، ويجحدونه وذلك عندما صالح النبي المشركين في الحديبية وأراد أن يكتب الصلح نادى عليّ بن أبي طالب ليكتب الصلح، فقال له: "اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، ولكن اكتب باسمك اللهم" فأنزل الله تعالى: {**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**}**.**

فأهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين يؤمنون بأسماء الله وصفاته التي سمّى الله تعالى بها نفسه أو سمّاه بها رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير

تكييف ولا تمثيل، يؤمنون بها، ويثبتون معانيها وما تدل عليه، ولكن كيفيتها لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

أما الفِرق الضالة من الجهميّة والمعتزلة والأشاعرة ومشتقات هؤلاء فإنهم يجحدونها، فمنهم من يجحد الأسماء والصفات وهم: الجهمية ولذلك كفرهم كثير من العلماء لأنهم لا يثبتون لله اسماً ولا صفة، أما المعتزلة، فقد أثبتوا الأسماء ولكنهم جحدوا معانيها وجعلوها أسماء مجردة ليس لها معاني. والأشاعرة: أثبتوا الأسماء وبعض الصفات وجحدوا كثيراً من الصفات، فأثبتوا سبع صفات، وبعضهم أثبت أربع عشرة صفة وجحدوا باقي الصفات وأنكروها.

وكل هؤلاء فِرق ضالة يتفاوتون في ضلالهم. قوله: وفي صحيح البخاري قال علي: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟".

هذه حكمة عظيمة من أمير المؤمنين رضي الله عنه: أنه أمر أن يُراعى أحوال الحاضرين، والسامعين، فيُحدثون بما يتناسب مع مستواهم العلمي، فيدرسون العقائد والعلوم شيئاً فشيئاً حتى تتسع لها عقولهم، وتتقبلها أفهامهم. ولا يدخل في هذا ذكر نصوص الأسماء والصفات بدليل قول ابن عباس الآتي لما ذكر حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، وهو أنه لمّا رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً في الصفات استنكاراً لذلك، فقال: ما فَرَقُ هؤلاء – يعني ما خوف هؤلاء – استنكاراً لخوفه – يجدون رِقة عند محكمة، ويهلكون عند متشابهة.

محكم الكتاب: هو ما يُفهم معناه من لفظه ولا يحتاج إلى دليل آخر يفسّره. ومتشابه الكتاب: هو الذي لا يُفهم معناه من لفظه ويحتاج إلى دليل آخر يفسّره.

فقاعدة أهل السنة والجماعة: أنهم يردّون المتشابه إلى المُحكم، فيفسرون بعض النصوص ببعض، لأنها كلها كلام الله أو كلام رسول الله ﷺ.

وأما أهل الزيغ فقاعدتهم: يأخذون المتشابه ويتركون المُحكم.

وهذا الرجل من أهل الزيغ فإنه لما سمع حديثاً في الصفات – وهي من المحكم – استنكره وانتفض خوفاً من ذكره ولا يحدث له ذلك عند المتشابه.

وفي هذا رَدٌّ على أهل الضلال الذين يجعلون نصوص الصفات من المتشابه، ويفوّضون معناها إلى الله، وهذا ضلال وغلط، بل هي من المُحكم الذي يُعرف معناه ويُفسّر، ولذلك بيّن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنها من المحكم وهذا هو الحق، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "ما وجدتُ أحداً من أهل العلم من السلف جعل آيات الصفات من المتشابه".

فدل مجمل ذلك على أن إنكار الأسماء والصفات كفرٌ بدليل قوله تعالى: {**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**}، لكن حسب حال النافي أكان مقلّداً أو غير مقلد؟ هل هو متأول أو غير متأوّل؟

نسأل الله العافية

الباب الواحد والأربعون
باب
قــول الله تعــالى: {يَعْرِفُــونَ نِعْمَــةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا} [النحل:83].

قال مجاهد: ما معناه: "هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي".

وقال عون بن عبد الله: "يقولون: لولا فلان لم يكن كذا".

وقال ابن قُتيبة: "يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا".

وقال أبو العباس: بعد حديث زيد بن خالد، الذي فيه: أن الله سبحانه وتعالى قال: "أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر.. الحديث. وقد تقدم، وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به.

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيّبة والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما يجري على ألسنة كثير.

الشرح:

عقد الشيخ رحمه الله هذا الباب بعد باب "من جحد شيئاً من الأسماء والصفات"، لأنه من جنس الباب فمن يجحد الأسماء والصفات فقد تنقّص من الربوبية وكذلك الذي يضيف النعم إلى غير الله تعالى قد تنقّص الربوبية أيضاً.

فالأصل أنّ المؤمن يشكر النعمة ولا يكفرها، وشُكر النعمة أن تضاف إلى منعِمها سبحانه وتعالى، وإنكارها أن تُضاف إلى غيره وهذا كفرٌ بالله، إما كفرٌ أكبر، وإما كفرٌ أصغر، بحسب ما يعتقده الشخص في قرارة نفسه.

وشكر الله على النعمة يقوم على ثلاثة أركان كما يقول العلماء:

الركن الأول: التحدث بها ظاهراً، كما قال تعالى: {**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**} [الضحى:11].

الركن الثاني: الاعتراف بها باطناً، يعني: أن تعترف بقرارة نفسك أنها من الله تعالى، فيكون قلبك موافقاً للسانك بالاعتراف أنها من الله.

الركن الثالث: صرف هذه النعمة في طاعة موليها ومسديها الله سبحانه وتعالى، فتستعين بها على طاعة الله وعبادته ولا تسخرها لمعصية الله، وإلا فلا تكون شاكراً لها.

إذاً، يجب على المؤمن أن لا ينكر نعمة الله بأن ينسبها إلى غيره من الأسباب أو الآلهة والأصنام أو الآباء والأجداد، أو أن تُنسب إلى كَدّ العبد وجهده وكسبه وحذقه ومعرفته أو أن يصرفها في معصية الله.

ويوضح هذا الأدلة والأمثلة التي ساقها المؤلف – رحمه الله – وذلك بقوله: قال بعض السلف: هو كقولهم كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً..

وكان الواجب أن يقولوا: "إنّ الله هو الذي نجّانا، وهو الذي سخّر لنا هذه الريح الطيبة، وهو الذي جعل قائد السفينة قادراً على قيادتها، فألهَمَهُ أن يقودها إلى برّ السلامة، وهكذا..

الباب الثاني والأربعون
باب
قول الله تعالى:{فَلا تَجْعَلُـوا لِلَّهِ أَنـدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:22].

وقال ابن عباس، في الآية: **الأنداد:** هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظُلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتُك يا فلانة، وحياتي، وتقول: لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلان، هذا كله به شرك.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله قال: "من حلف بغير الله فقد كَفَر، أو أشرك". (رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم).

قال ابن مسعود: "لأن أحلف بالله كاذباً أحبّ إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً".

وعن حُذيفة رضي الله عنه، عن النبيّ قال: "لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان" ولكن قولوا: "ما شاء الله ثم شاء فلان" (رواه أبو داود بسندٍ صحيح).

وجاء عن إبراهيم النخعي: "أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا يقول: لولا الله وفلان".

الشرح:

{**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً**}، هذا نهيٌ من الله تعالى عن الشرك بعد الأمر بالتوحيد، والأنداد جمع ندّ ومعناه المثيل والشبيه والنظير، أي فلا تجعلوا لله نظراء وأمثالاً تشبهونهم به، وتشركونهم معه في العبادة وهم خلقٌ مثلكم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

{**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**} يعني أنه لا ندّ له سبحانه وتعالى، وتعلمون أن أحداً لم يشارك الله في خلقه وتدبيره.

أن تجعل لله نداً هذا شركٌ، ومن الشرك بالألفاظ قول الرجل: ما شاء الله وشئت، لولا الله وفلان لأن الواو تقتضي التشريك والصحيح أن يقول: لولا الله ثم فلان لأن ثم للترتيب ولا تقتضي التشريك.

وكذلك الحلف بغير الله من الشرك لأن **الحلف والقسم معناه:** تأكيد شيءٌ بذكر معظّم على وجهٍ مخصوص يعني أن الحالف مقصوده تعظيم المقسم به، والتعظيم إنما يكون لله سبحانه وتعالى فيجب ألاّ يقسم المخلوق إلا بالله أو بصفةٍ من صفاته جلّ وعلا.

أما الله الخالق فإنه يقسم سبحانه وتعالى بما شاء من خلقه وبذلك يكون الحلف بغير الله من اتخاذ الأنداد لله سبحانه وتعالى، لذلك قال ابن مسعود: "لأن أحلف بالله كاذباً أحبّ إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً".

لأن الحلف بغير الله شركٌ والحلف بالله كاذباً معصية دون الشرك لكن فيها توحيد لله لأنه حلف بالله (وحده) وإن كان كاذباً في يمينه لكنه حلف موحداً لله، وسيئة الكذب أخفّ من سيئة الشرك.

نسأله تعالى أن نكون موحّدين صادقين

الباب الثالث والأربعون
باب من جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: "لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرضَ، ومن لم يرضَ فليس من الله" (رواه ابن ماجة بسندٍ صحيح)

الشرح:

هذا الحديث فيه وعيد شديد لمن لم يرضَ إذا حُلف له بالله، لأنه يجب القناعة بالحلف بالله، وذلك لأنه تعظيمٌ لجانب الله سبحانه وتعالى، وثقةٌ بالحلف به، وأن لا يُستهان باليمين بالله، لا من الحالف ولا من المحلوف له، بل يجب أن يُعظم من الجانبيْن، وهذا من حقوق التوحيد، وعدمه من نقصان التوحيد.

الباب الرابع والأربعون
باب قول: ما شاء الله وشئت

عن قُتيبة: أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا وربّ الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت. (رواه النسائي وصحيحه).

وله أيضاً عن ابن عباس: أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: "أجَعَلتَني لله ندّاً، بل ما شاء الله وحده".

ولابن ماجه: عن الطُّفيل – أخي عائشة لأمّها – قال: رأيتُ كأني أتيتُ على نفرٍ من اليهود قلتُ: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عُزيرٌ ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، ثم مررتُ بنفرٍ من النصارى، فقلتُ: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرتُ، ثم أتيتُ النبيّ ﷺ فأخبرته، فقال: هل أخبرتَ بها أحداً؟ قلت: نعم، قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمةً كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده".

الشرح:

فيه النهي عن قول (ما شاء الله وشئت)، والنهي عن الحلف بالكعبة أو بغيرها من المخلوقات لأنه تعظيم لغير الله سبحانه وتعالى ولا يستحق التعظيم على الوجه الأكمل إلا الله سبحانه وتعالى، ففيه: أن الحلف بغير الله شركٌ لأن النبيّ أقرّ اليهودي على قوله: "أنكم تشركون".

وفي حديث ابن ماجه عن الطُفيل: قال: **"رأيتُ"** **يعني:** في النوم. والرؤيا حقٌ، وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

والرؤيا ثلاثة أنواع:

- **رؤيا حق:** وهي ما يجري على يد ملك الرؤيا.
- **رؤيا من الشيطان:** ليكدّر على الإنسان.
- **رؤيا حديثِ نفسٍ:** ذلك أن الإنسان يفكر أو يهتم بأشياء في اليقظة فإذا نام تعرض له في نومه وهذا أضغاث أحلام.

وفيما سبق فائدة عظيمة وهي: قبول الحق، ممّن جاء به ولو كان عدواً، لأن الحق ضالة المؤمن والرجوع إلى الحق فضيلة.

الباب الخامس والأربعون
باب من سبَّ الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى: {**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**} [الجاثية: 24].

وفي الصحيح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: "يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهر، وأنا الدهر، أقلّب الليل والنهار". وفي رواية: "لا تسبّوا الدهر فإن الله هو الدهر".

الشرح:

مَن سبّ الدهر: يعني من ذمّ وتنقَّص الزمان والوقت. ومعنى **آذى الله:** أن الله سبحانه وتعالى يبغض ذلك ويكرهه، لأنه تنقّص لله سبحانه والله سبحانه وتعالى يتأذى ببعض أفعال عباده وأقوالهم التي فيها إساءة في حقه، ولكنه لا يتضرر بذلك، لأن الله سبحانه وتعالى لا يضرّه شيء قال تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً**} [الأحزاب:57]، وقال تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**} [آل عمران:177].

وفي الحديث: "يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني". ففرقٌ بين الضّرر والإيذاء. ووجه كون الله سبحانه وتعالى يتأذى بسبّ الدهر لأن السبّ يكون متوجهاً إليه، لأنه هو المتصرف يجري الخير والشر في قدَرِه وقضائه، أما الدهر فإنما هو زمانٌ ووقتٌ للحوادث المكروه منها والمحبوب، فالدهرُ نفسه لا يُحدث هذه الحوادث ولا يتصرف بها، ولكن خالق الدهر وهو الله هو المتصرف في هذه الحوادث، قال تعالى: {**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً**} [الفرقان:62].

إذاً، فمن علّق الذم بالدهر فإنما يذمّ ما قدره الله ويذم تصرف الله وهذا تنقص في حقه سبحانه وتعالى، فيتأذى بذلك ولا يتضرر منه، وفي حديث أبي هريرة يقول الله عز وجل: "يؤذيني ابن آدم" لماذا؟ يقول تعالى بعده: "يسبّ الدهر" ففسر سبحانه وتعالى الأذى بأن ابن آدم يسبّ الدهر ثم قال: "وأنا الدهر" وفسّر معنى ذلك فقال: "أقلّب الليل والنهار" وليس معناه أن الله يُسمى الدهر، والحديث يفسّر بعضه بعضاً، فمعنى أن الله هو الدهر يعني أنه هو المتصرف بالدهر وهو المقدِّر لكل ما يكون في الدهر من خير أو شرٍّ أو مكروه أو محبوب. فمن سبَّ الدهر فكأنما سبَّ الله، لأن مقصود من سبَّ الدهر أن يسبّ الحوادث والقدر الذي حصل في الدهر وهو بذلك إنما يعترض ويسبّ ويتنقص ما يقدره الله.

فسبّ الدهر حرام فيكون إما شركاً أكبر أو شركاً أصغر بحسب حال السّابّ، فإن كان الذي يسبّ الدهر يعتقد أن الدهر هو الفاعل وهو الذي أحدث المصيبة فهذا شركٌ أكبر، لأنه أثبت لله شريكاً، أما إذا اعتقد أن الله هو الفاعل لكنه ينسب الأذى إلى الدهر أو ينسب الذم للدهر من باب التساهل في اللفظ فهذا شركٌ أصغر.

نسأل الله العافية من كل الشرك

الباب السادس والأربعون
باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في "الصحيح": عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قال: "إنّ أخنع اسمٍ عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله". قالً سفيان: "مثل شاهان شاه".

وفي رواية: "أغيظ رجلٌ على الله يوم القيامة وأخبثه". قوله: "أخنع" يعني: أوضع.

الشرح:

قوله: **"التسمّي بقاضي القضاة ونحوه"** **يعني:** كل اسم فيه تعظيم شديد للمخلوق من الألقاب والأسماء التي فيها التعظيم الذي لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى، مثل: (ملك الأملاك)، و (سيّد السادات) والتي مثلها، وهذا منهيٌّ عنه وحرام، لأن المطلوب من المخلوق التواضع مع الله سبحانه وتعالى، وتجنب ما فيه تزكيةٌ للنفس أو تعظيمها، لأن هذا يحمل على الكبر والإعجاب. وذلك يخلّ بعقيدة التوحيد، لأنه يجب أن ينزه الله سبحانه وتعالى عن المثيل وعن النظير وهذا فيه مشابهة ومماثلة. فمثلاً: (قاضي القضاة) هذا لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقضي بين الناس يوم القيامة القضاء النهائي، فالقضاء المطلق لله سبحانه وتعالى، والمناسب أن يقول: (رئيس القضاة).

"وفي الصحيح" يعني صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: **"إن أخنع اسم" يعني:** أوضع اسم. فإذا تسمى إنسان بـ (ملك الأملاك) فإنها تكون وضيعة وساقطة عند الله تعالى، وإن كان مقصود صاحبها الرِّفعة والعلوّ، فإنّ الله يجازيه بنقيض ذلك ويجعله وضيعاً يوم القيامة فيُحشر مع المتكبّرين أمثال الذر.

قال سفيان: يعني سفيان بن عيينة إمام محدث جليل، مثل "شاهان شاه"، يعني عند العجم ومعناه: ملك الملوك.

الباب السابع والأربعون
باب احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم من أجل ذلك

عن أبي شُرَيْح: أنه كان يكنّى أبا الحكم، فقال له النبي **صلى الله عليه وسلم**: "إن الله هو الحكم وإليه الحُكم. فقال: إنّ قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمتُ بينهم، فرضي كلا الطرفيْن، فقال: ما أحسن هذا، فمالك من الولد؟ قلت: شريح ومسلم وعبد الله، قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح، قال: فأنت أبو شريح" (رواه أبو داود وغيره).

الشرح:

لله سبحانه وتعالى أسماء سمّى بها نفسه في كتابه، وسماه بها رسوله ﷺ في سنّته، وله أسماء سبحانه وتعالى لا يعلمها إلا هو، قال تعالى: {**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**} [الأعراف: 180]، وقال النبي ﷺ في دعائه: "اللهم إنّي أسألك بكل اسم هو لك سميتَ به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك". فأسماء الله لا يعلمها إلا هو سبحانه وكلها حُسنى.

وهذه الأسماء لا يجوز أن تُمتهن أو تُبتذل أو توضع في أشياء تُستعمل وتُهان، كأن تُكتب على أشياء تُداس بالأقدام، أو تقع في الشوارع والقاذورات، ومَن وجد شيئاً من ذلك وجب عليه رفعُه أو إتلافه، أو إزالة اسم الله تعالى منه، فهذا من احترام أسماء الله سبحانه وتعالى.

وكذلك تغيير الاسم إذا سمي شيء من المخلوقات باسم من أسماء الله فإن تغييره من احترام أسماء الله سبحانه وتعالى، كما فعل النبي ﷺ مع أبي شُرَيْح في الحديث السابق.

الباب الثامن والأربعون
باب من هزل بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

وقول الله تعالى: {**قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**} [التوبة: 65].

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم، وقتادة دخل حديث بعضهم في بعض: أنه قال رجل في غزوة تبوك، ما رأينا مثل قُرّائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب السُنا، ولا أجبن عند اللقاء – (يعني رسول الله وأصحابه القُرّاء) -، فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنّ رسول الله فذهب عوف إلى رسول الله ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه.

فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عناء الطريق. قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلّقاً بنسعة ناقة رسول الله وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله :{**أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**}، ما يلتفت إليه، وما يزيده عليه.

الشرح:

هذا الباب بابٌ عظيم، إذا تأمّله الإنسان وعرض واقع الناس فإن الله ينفعه به. فإن حكم من يستهزئ بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول أنه يرتدّ عن دين الإسلام بإجماع المسلمين، سواءً كان جاداً أو هازلاً أو مازحاً. حيث لم يستثنِ الله إلا المكره.

قال تعالى: {**مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**} [النحل: 106]. ومن المهم جداً أن يعلم المؤمن أن مَن لم ينكر الكفر والشرك فإنه يكون كافراً، لأن الذي

تكلّم في هذا المجلس واحد من المنافقين لكن الله سبحانه نسب الكفر إلى المجموع، فقال: {**أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**} [التوبة: 65 ، 66]، لأن الراضي كالفاعل، وهذه خطورة عظيمة يجب أن ينتبه لها.

نسأل الله العافية

الباب التاسع والأربعون
باب
قول الله تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَـاهُ رَحْمَـةً مِنَّا مِنْ بَعْــدِ ضَــرَّاءَ مَسَّــتْهُ لَيَقُــولَنَّ هَــذَا لِي} [فصلت:50].

قال مجاهد: "هذا بعملي، وأنا محقوق به". وقال ابن عباس: "يريد من عندي". وقوله: "إنّما أوتيته على علمٍ عندي".

قال قتادة: "على علمٍ مني بوجوه المكاسب". وقال آخرون: "على علمٍ من الله أني له أهل"، وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: "إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم، فبعث ملكاً، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحبّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قذرني الناس به، قال: فمسحه فذهب عنه قذره، فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فأيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الإبل، فأعطي ناقةً عُشراء، وقال: بارك الله لك فيها، قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحبّ إليك؟ قال: لونٌ حسن وشعر حسن، ويذهب عني الذي قذرني الناس به، فمسحه، فذهب عنه قذره، وأعطي شعراً حسناً. فقال: أي المال أحبّ إليك؟ قال: البقر، فأعطي بقرة حاملاً. فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى، فقال: أي شيءٍ أحبّ إليك؟ قال: يرد الله عليّ بصري، فأبصر به الناس، فمسحه، فردّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحبّ إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاةً والداً، فأنتج هذان وولّد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، قال: ثم أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً

أتبلّغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة! فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً، فأعطاك الله عز وجل المال؟ فقال: إنما ورثتُ هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنتَ كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت، قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا، فقال له: إن كنتَ كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت، قال: وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجلٌ مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري قال: قد كنتَ أعمى فردّ الله عليّ بصري، فخذ ما شئتَ، فوالله لا أجهدُك اليوم بشيءٍ أخذته لله، فقال له الملك: أمسك عليه مالك، فإنما ابتُليتم فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيْك" (أخرجاه).

الشرح:

قوله: {**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ**} يعني الإنسان {**رَحْمَةً مِنَّا**} عافية وصحة في بدنه وغنىً من فقره {**مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ**} في بدنه من المرض والمصائب، أو في حاله من الفقر {**لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي**} ينسى الضراء التي مسته وينسى من أين جاءت هذه النِّعم ويظن أن ما في يده إنما هو بحوله وقوته، فيقول: {**هَذَا لِي**}، فلا يشكر الله عز وجل ويعترف بنعمته، بل ينسب هذه النعمة إليه هو وإلى كدّه وكسبه، أو إلى آبائه وأجداده.

وفي هذا المعنى حديث النفر الثلاث من بني إسرائيل وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام ومعناه عبد الله.

فاعترف الأعمى بنعمة الله فرضي الله عنه بسبب شكره لله وسخط على صاحبيْه بسبب كفرهم بنعمة الله عز وجل.

فدلّت الآيات وهذا الحديث العظيم على أن نسبة النعم إلى الله عز وجل توحيد، وأن نسبتها إلى غيره شركٌ، ويكون شركاً أكبر إذا اعتقد أن غير الله هو الذي

أوجدها وإذا كان معتقداً أن الله هو الذي أوجد هذه النعم ولكن نسبها إلى السبب فهو شركٌ أصغر، لأنه لا يجوز النسبة إلى الأسباب ولو كانت صحيحة وإنما تُضاف النعم إلى الله سبحانه وتعالى.

والنّعم والنّقم ابتلاءٌ واختبار من الله سبحانه وتعالى لأنه يبلوا بالشر والخير كما قال تعالى: {**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**} [الأنبياء: 35].

وفي الحديث وصف الله عز وجل بالرضا والسخط وهما صفتان من صفاته اللائقة به سبحانه وتعالى ليس كرضا المخلوق أو سخط المخلوق.

نسأل الله رضاه ونعوذ به من سخطه
إنّه سميعٌ مجيب

الباب الخمسون
باب
قول الله تعالى: {**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا**} [الأعراف:190].

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم مُعبّد لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وغير ذلك، حاشا عبد المطلب.

وعن ابن عباس في الآية، قال: لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس. فقال: إني صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة، لتُطيعانني أو لأجعلنّ له قرنيّ أيّل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلنّ، يخوّفهما، سمّياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميّتاً، ثم حملت، فأتاهما فذكر لهما، فأدركهما حبّ الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله تعالى: {**جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا**} (رواه ابن أبي حاتم)[20].

وله بسندٍ صحيح، عن مجاهد، في قوله: {**لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً**}، قال: أشفقا أن لا يكون إنساناً، وذُكر معناه عن الحسن، وسعيد وغيرهما.

الشرح:

هذا الباب المقصود به: بيان أن تعبيد الأسماء لغير الله شركٌ ينافي كمال التوحيد، إن كان المقصود مجرّد التسمية. أما إن كان المقصود تعبيد التألّه لغير الله فإنّه شركٌ أكبر ينافي التوحيد.

وقوله: {**فَلَمَّا تَغَشَّاهَا**}، يعني آدم وطئ حواء عليهما السلام. {**حَمَلَتْ**} يعني علقت النطفة برحْمِها {**حَمْلاً خَفِيفاً**} هذا شأن الحمل في أول أطواره: كونه نطفة، ثم علقة ثم مُضغة ويكون خفيفاً في هذه الأطوار. **فَمَرَّتْ بِهِ** يعني: ما أجلسها ولا عوَّقها عن العمل، فهي تمر وتمشي وتقوم وتقعد. {**فَلَمَّا أَثْقَلَتْ**} يعني: في طور نفخ الروح فيه. {**دَعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا**} يعني آدم

---

20 فيه ضعف، انظر الضعيفة رقم (342).

وحواء طلبا من الله عز وجل {**لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً**} مولوداً سويّاً في خلقته {**لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ**}، وهذا هو الواجب شُكر النعمة، {**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً**} استجاب الله دعاءهما وآتاهما ولداً إنساناً سويّاً صالحاً. {**جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا**} بأن سمّياه عبد الحارث، فعبّداه لغير الله، وهذا من الشرك في التسمية.

لذلك قال ابن حزم اتفقوا يعني أجمعوا على تحريم كل اسم معبدٍ لغير الله: كـ (عبد الحسين) و (عبد الرسول) و (عبد الكعبة) و (عبد النبي) و (عبد الحارث)، وغير ذلك.

ولابن أبي حاتم بسندٍ صحيح عن قتادة: "شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته". شركُ الطاعة شركٌ أصغر لا يخرج من الملّة، وإنما فعلاه من باب حب الولد، ومن أجل سلامته فقط، ولو لم يقصده الإنسان، فدلّ هذا على أنّ من تكلم بالشرك أو فعل الشرك فإنه يُسمى مشركاً، ولو لم يقصده أو ينوه، فيحكم عليه بأن فعله هذا شركٌ، سواءً من الشرك الأصغر أو الشرك الأكبر، ولهذا قال الرسول ﷺ للذي قال له: ما شاء الله وشئت: "أجعلتني لله نداً؟" مع أن القائل ما أراد أن يجعل لله نداً، ولكن هذا اللفظ لا يجوز، فهو شركٌ ولو لم يقصده فكيف إذا قصده؟!

ففي ذلك ردٌّ على من يقول: أن من قال كلمة الشّرك أو فَعَل الشّرك لا يُحكم عليه أنه مشركٌ حتى يعتقده بقلبه كما هو قول مرجئة هذا العصر.

الباب الواحد والخمسون

باب

قول الله تعالى: {وَلِلَّهِ الأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} [الأعراف:180].

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: {**يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**}، "يشركون". وعنه: "سمُّوا اللات من الإله،

والعزّى من العزيز". وعن الأعمش: يُدخلون فيها ما ليس منها.

الشرح:

هذا الباب عقده الشيخ رحمه الله في كتاب التوحيد من أجل بيان وجوب إثبات أسماء الله تعالى وصفاته، ومن أجل أن يبين التوسل المشروع والتوسل الممنوع، لأن مسألة التوسل ضلّ فيها خلقٌ كثير من قديم الزمان، فالمشركون عبدوا غير الله وسمّوا معبوداتهم وسائل إلى الله فيقولون: {**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**} [الزمر: 3]. قال تعالى: {**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**} [يونس: 18]، فهم لا يعبدون هذه المعبودات لذاتها، لأنهم يعلمون أنها لا تَخلق ولا تَرزُق ولا تُحيي ولا تُميت، وإنما زعموا أنها تتوسط لهم عند الله عز وجل، من باب الوسيلة، فردّ الله عليهم في القرآن بأن هذا التوسل كفرٌ وشرك، وأنه لم يشرعه سبحانه وتعالى لعباده.

وجاء من بعد المشركين القبوريون والصوفيون ومن قبلهم الرافضة والباطنية كلهم نحى هذا المنحى الذي نحاه المشركون، فصاروا يعبدون الموتى، ويستغيثون بهم، ويدعونهم من دون الله عز وجل، ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ويقولون: نحن نعلم أنهم مخلوقون ونعلم أنهم لا يخلقون ولا يرزقون، ولكننا اتخذناهم وسيلة بيننا وبين الله، قالوا كما قال المشركون {**هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**}، وربما احتجوا بقوله تعالى: {**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ**}، أو بقول الله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**}، فظنوا أن الوسيلة التي أمر الله أن يتخذوها إليه أن يجعلوا بينه وبينهم واسطة، وهذا فهم باطل، لم يرِدْه الله تعالى بل أنكره على المشركين وحكم بأنه كفرٌ وشركٌ ونزّه نفسه عن هذا وقال: {**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا**

يُشْرِكُونَ}، فالله أمر الخلق أن يدعوه مباشرة دون واسطة، قال تعالى: {**وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**}، فهو لم يشرع لعباده أبداً أن يجعلوا بينهم وبينه وسائط.

وفي الحديث: "ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثُلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داعٍ فأستجيب له، هل من مستغفرٍ فأغفر له؟".

فأمر بدعائه واستغفاره وسؤاله مباشرة، لأنه سبحانه وتعالى: {**يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**}، ويعلم أحوال عباده، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

فالتوسّل نوعين:

- توسُّل ممنوع: وهو التوسُّل بجاه المخلوق، أو بحق المخلوق ومنزلته، أو بذاته وهو إما شركٌ، وإما بدعة ووسيلة إلى الشرك.

- التوسّل المشروع: وهو الذي جاء في الكتاب والسنّة ذِكره والأمر به، ومن ذلك الآية الكريمة في هذا الباب {**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**}، فالتوسّل بأسماء الله وصفاته هو المشروع فتقول: "يا رحمن ارحمني"، "يا غفور اغفر لي"، "يا تواب تُب عليّ" وهكذا.

- وكذلك من التوسّل المشروع: التوسّل إلى الله عز وجل بدعاء الصالحين، فإذا كان هناك رجلٌ صالح حيّ موجود تأتي إليه وتقول: "ادعُ الله لي أن يغفر لي، أن يرزقني، أن يشفيني" أو إذا قحط الناس طلبوا من الصالحين أن يدعوا إلى الله تعالى لهم بالغيث فهذا مشروع.

ودليل ذلك:

أن عمر رضي الله عنه استسقى بدعاء العباس عم النبي وقال: "اللهم إنا كنا نستسقي بنبيّنا فتسقينا، وإنا نستسقي بعم رسولك، قم يا عباس فادعُ" فيدعو العباس والناس يُؤمِّنون، أما الميّت فلا يجوز أن تطلب منه شيئاً،

فالصحابة لم يطلبوا من النبي أن يدعوا لهم وهو ميت بل طلبوا من عمه العباس لأنه حيٌ حاضر يستطيع أن يدعوا، فلا يجوز الطلب من النبي فضلاً عن غيره من الأموات أن يتوسط لنا عند الله لأنهم أموات.

ومن التوسّل المشروع أيضاً: التوسل بالأعمال الصالحة إلى الله، فيجوز مثلاً التوسل إلى الله بالأيمان، قال تعالى: {**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**}.

ومن ذلك أيضاً التوسل بالتوحيد تقول: "أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت" وهكذا.. وقوله تعالى: {**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**}، راجع الباب الأربعين لفهم الإلحاد في الأسماء.

الباب الثاني والخمسون
باب لا يُقال: السلام على الله

في الصحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا كنا مع النبي في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان، فقال النبي : "لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام".

الشرح:

معنى السلام: الدعاء للمُسلَّم عليه بالسلامة من الآفات، والله جلّ وعلا منزّه عن أن يناله شيءٌ من النقص أو الآفات أو المكروهات، فليس بحاجة أن يُدعى له سبحانه وتعالى لغناه عن كل شيءٍ، وحاجة كل شيء إليه سبحانه وتعالى، فمن دعا لله فقد تنقّص الله عز وجل، وهذا يخلّ بالتوحيد.

الباب الثالث والخمسون
باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح، عن أبي هريرة: أن رسول الله قال: "لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مُكره له".

ولمسلم: "وليُعظم الرّغبة، فإن الله لا يتعاظَمه شيءٌ أعطاه".

الشرح:

إذا علّق العبد الدعاء بالمشيئة فإن ذلك يتضمن أمريْن:

الأول: أن هذا يدل على فُتوره في طلب الدعاء من الله تعالى وكأنه غنيٌّ عن الله، ولا شك أن العبد مفتقرٌ إلى الله عز وجل في كل أحواله ولو كان من أكثر الناس مالاً وأولاداً وملكاً.

الثاني: كأنه يرى بأن الله جلّ وعلا قد يجيب الدعاء وهو كاره، فـ "إن شئت"، معناه: أنا لستُ مُكرهاً لك، أخشى أن يشقّ عليك، وهذا لا يليق بالله سبحانه وتعالى لأنه تنقص له، وفيه يتنقص التوحيد، ويدل على هذا المعنى قول النبي في آخر الحديث "فإن الله لا مُكره له".

الباب الرابع والخمسون
باب لا يقول: عبدي وأمتي

في الصحيح، عن أبي هريرة، أن رسول الله قال: "لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضيء ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي".

الشرح:

عقد الشيخ هذا الباب من أجل سدّ الطرق التي تُفضي إلى الشرك وحماية جانب التوحيد، فإن العباد كلهم عبيد لله، قال تعالى: {**إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً**} [مريم: 93]، فليس هناك عبدٌ لأحد إلا لله عز وجل.

الباب الخامس والخمسون
باب لا يُردّ من سأل بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال، قال رسول الله ﷺ: "من سأل بالله فأعطوه، من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه" (رواه أبو داود والنسائي بسندٍ صحيح)

الشرح:

قول الشيخ رحمه الله: "باب لا يرد من سأل بالله" لأن هذا فيه تعظيم لله سبحانه وتعالى، وهو من كمال التوحيد، أما إذا ردّ السائل بالله ففيه إساءة في حق الله سبحانه وتعالى وفيه نقصٌ في التوحيد.

والسؤال بالله عز وجل جائز، قال تعالى: {**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَام**}، وفي الحديث: "من سأل بالله فأعطوه"، لكن من سُئل بالله لا يجوز له أن يرد السائل إجلالاً لله سبحانه وتعالى.

الباب السادس والخمسون
باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابرٍ قال، قال رسول الله ﷺ: "لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة" (رواه أبو داود)[21].

الشرح:

هذا الباب عقده الشيخ رحمه الله في كتاب التوحيد لأن تعظيم صفات الله سبحانه وتعالى من تعظيم الله، وتعظيمها من التوحيد وعدم تعظيمها فإنه تنقص للتوحيد، لأنه تنقُّص لله عز وجل.

"ووجه الله": صفةٌ من صفاته سبحانه وتعالى الذّاتية، تواترت بإثباته الأدلة في كتاب الله وفي سنّة رسوله ﷺ، وأجمع عليه علماء السنّة والجماعة، قال تعالى: {**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**}، فأثبت له وجهاً ووصفه بالجلال ووصفه بالإكرام، كذلك قال تعالى: {**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**}.

والسنة: فيها أحاديث كثيرة في إثبات الوجه لله عز وجل، مثل الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله: "لا يسأل بوجه الله إلا الجنة"/

ومثل حديث: "أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة"[22].

فالوجه من الصفات الذاتية وهو أعظمها، ولكن مع العلم واليقين بأن صفات الله ليست كصفات خلقه، فالله له وجه والمخلوق له وجه، والله له يديْن والمخلوق له يديْن، والله له سمع وله بصر، والمخلوق له سمعٌ وله بصر، ولكن صفات الله جلّ وعلا لائقة به وبعظمته، وصفات المخلوقين تليق بهم وبخلقتهم وضعفهم، فلا تشبه صفات المخلوقين صفات الخالق جلّ وعلا {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**}، {**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ**

---

21 الحديث إسناده ضعيف، كما نبّه على ذلك الشيخ الفوزان. انظر ضعيف الترغيب رقم (506).

22 إسناده ضعيف.

سَمِيّاً{ ،}**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ،**} {**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**}.

ومن شبّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه من صفاته فقد كفر، كما قال نعيم ابن حماد – شيخ البخاري – وغيره من علماء السلف "من شبّه الله بخلقه فقد كفر، لأن الله جلّ وعلا يقول: {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**}، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، لأن الله تعالى يقول: {**وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**}، ويقول: {**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**}، فأثبت له الوجه، فمن نفى ما أثبته الله لنفسه فهو مكذّبٌ لله، ويكون كافراً بالله عز وجل.

وفي هذا الحديث أيضاً النهي عن سؤال الأشياء الحقيرة بوجه الله عز وجل، وكل ما عدا الجنة من المخلوقات التي تطلب من الله فهو حقير، فلا يسأل بوجه الله تعالى. بقي أن هذا الحديث الذي رواه أبو داود ضعيف في إسناده سليمان بن معاذ فكيف أورده المصنف؟

نقول: المصنّف رحمه الله يستدلّ في هذا الكتاب "كتاب التوحيد" بالأحاديث الصحيحة أو الأحاديث الحسنة، أو الأحاديث الضعيفة - وهي قليلة جداً في هذا الكتاب – ولكن لها شواهد تؤيدها، وهذا الحديث له شواهد كثيرة من الكتاب والسنّة في إثبات الوجه لله عز وجل.

الباب السابع والخمسون
باب ما جاء في اللّو

وقول الله تعالى: {**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا**} [آل عمران: 154]. وقوله: {**الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا**} [آل عمران: 168].

وفي الصحيح، عن أبي هريرة، أن رسول الله قال: "احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان".

الشرح:

لو: حرف، يسميه النحاة: حرف امتناع لامتناع.
والإيمان بالقدر هو أحد أركان الإيمان الستة، وقال تعالى: {**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**} [القمر: 49]، وفي الحديث الصحيح: "إنّ الله كتب مقادير الأشياء في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء".

وقال تعالى: {**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ**} [الحديد: 22]، يعني في اللوح المحفوظ، {**مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا**}، يعني قبل خلقها وقبل أن تحدث في وقتها {**إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**}.

وقال تعالى: {**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**}، وكلمة **"لو":** إذا جاء بها الإنسان في سياق الجزع والسخط على ما يحصل له، فإن هذا نقصٌ في التوحيد وجزعٌ من القدر، والواجب على المسلم أن يرضى بقضاء الله وقدَره، ولا يجزع ولا يسخط، وأن يعلم أنه لا بدّ أن يحصل له ذلك، شاء أم أبى، جزع أم لم يجزع، لأن الله قدّر ذلك وكتبه قبل أن يخلقه.

وقوله فإن "لو"، أي قول: "لو" "تفتح عمل الشيطان": إذا أرجع الإنسان هذا إلى غير القضاء والقدَر دخل الشيطان وصار يوسوس ويلقي الأوهام والقلق النفسي ويصبح الإنسان في همّ وغمّ وحزن، أما إذا أغلق الإنسان هذا الباب بقوله: "قضاء الله وقدَره" أو بقوله: "قدَّر الله وما شاء فعل" فإنك تغلق باب الشيطان.

يبقى إشكال وهو: أن الرسول قال لأصحابه في حجة الوداع: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولأحللتُ معكم وجعلتها عمرة" أليس هذا فيه استعمال "لو" ألا يتعارض مع قوله : "وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا وكذا؟".

الجواب: لا تعارض، لأن "لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا" هذا من باب الجزع على شيءٍ حصل وانتهى.

أما "لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت"، فهو إخبار عن المستقبل لا عن الماضي، وأن الرسول لو تبيّن له فضل العُمرة والتمتع بها إلى الحج لتمتع صلى الله عليه وسلم ولما ساق الهدي، فهو إخبار عمّا يفعله في المستقبل. وأيضاً هو يتمنّى عمل طاعة وعمل قُربة إلى الله سبحانه وتعالى، وليس يتجزّع على شيءٍ فات أو شيءٍ مضى، فلا تعارُض بين هذا وهذا.

الباب الثامن والخمسون
باب النهي عن سبّ الريح

وعن أبيّ بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: "لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به" (صححه الترمذي).

الشرح:

هذا الباب من جنس باب النهي عن سبّ الدهر وباب النهي عن قول: "لو" وغير ذلك مما فيه إضافة الأشياء إلى غير الله عز وجل فإنه منهيٌّ عنه، لأن الأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى وهو خالقها ومدبّرها فتضاف إليه سبحانه وتعالى ولا تُضاف إلى غيره لا إضافة سبّ ولا إضافة مدح لأن هذا فيه تنقّصاً لله عز وجل وإسناد الأمور إلى غيره سبحانه.

وكما سبق، أنه إذا اعتقد أن هذه الأشياء تصنع ذلك أو تحدثه، فهذا شركٌ أكبر، والواجب على المسلمين أن يتنبّهوا لذلك لأنه يكثر على الألسنة الآن مدح الأشياء وأنه بفضلها حدث كذا وكذا فيقولون: بفضل الطب حصل كذا، وبفضل تضافر الجهود وبفضل جهد فلان ولا يُذكر الله أبداً، ولا يُثنى عليه في هذه الأمور، وهذا خطأ كبير في العقيدة، ويُخشى على من قاله من الشرك الأكبر، وهو لا يسلم من الشرك لأنه إذا لم يقصده يكون شركاً أصغر، ومن ذلك أيضاً أن ينسب الأشياء إلى الظواهر الطبيعية، كما يقولون في نسبة الأمطار إلى المناخ، أو المنخفض الجوي، وغير ذلك، وهذا كله من سوء الأدب مع الله عز وجل.

نعم، الله جعل للأشياء أسباباً، ولكن مَن هو الذي خلق هذه الأسباب ومَن هو الذي سخّرها وأودع هذه

الأسرار فيها؟ إنه الله عز وجل، فالواجب أن تُسند الأمور إلى الله عز وجل، وهذا هو التوحيد.

فالريح مأمورة، تُؤمر بالخير وتُؤمر بالشر والله سبحانه وتعالى هو الذي يسيّرها، فإذا سبّ أحدٌ الريح فكأنه يعترض على فعل الله عز وجل، لأن الريح لا تفعل بنفسها ولكن الله هو الذي يسيّرها ويُرسلها.

الباب التاسع والخمسون
باب

قـول الله تعـالى:{**يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْـرَ الْحَـقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْـرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**}**.**[آل عمـران:154]**.** وقولـه: {**الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّـوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّـوْءِ**}[الفتح:6].

قال ابن القيم في الآية الأولى:

فُسّر هذا الظن بأنه سبحانه وتعالى لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفُسّر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، ففُسّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يُظهره الله على الدين كله، وهذا هو ظنّ السوء الذي ظنّه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظنّ غير ما يليق به سبحانه وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدَره، أو أنكر أن يكون قدَره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجرّدة، فذلك ظنّ الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظنّ السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده، فلْيعتنِ اللبيب الناصح لنفسه بهذا، ولْيتُب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظنّ السوء، ولو فتشت مَن فتشت لرأيت عنده تعنّتاً على القدر ومَلامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقِل ومستكثِر، وفتش في نفسك: هل أنت سالم؟!

فإن تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ	**وإلا فإنـي لا أخالُـكَ ناجيـا**

الشرح:

هذا بابٌ عظيم، ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنّ حُسن الظن بالله سبحانه وتعالى من واجبات التوحيد، وسوء الظن بالله عز وجل ينافي التوحيد، والله سبحانه وتعالى توعّد في الآيتيْن العذاب والعقوبة على سوء الظن به سبحانه وتعالى، والقصّة حصلت في وقعة أُحُد لمّا حصل على المسلمين ما حصل من إدالة العدو عليهم بسبب المخالفة التي حصلت في الجيش، فأصيب النبي ، وحصل ما حصل، فتكلم المنافقون بكلامٍ سيء وقالوا إن المسلمين ليسوا على شيءٍ وأن دينهم ليس بشيء، ولو أنهم على شيءٍ لما حصل لهم ما حصل فظنوا بالله ظنّ الجاهلية وظنّ السوء، فهم ليس عندهم العلم بالله وبأسمائه وصفاته وأن من صفاته العِلم والحكمة. والله سبحانه وتعالى ما فعل ذلك بالمسلمين إلا بعلمه وحكمته ليمحّص الذين آمنوا والله يريد أن ينبّه المؤمنين من أجل أن ينقّوا صفوفهم من الدّخيل والخطأ فيرجعوا إلى الله سبحانه وتعالى فيعيد لهم النصر والتمكين، هذه هي سنة الله جل وعلا في خلقِه، أما من ظنّ أن أمر الدين سيضمحلّ وأن ما جاء به محمد سيزول نهائياً، ولا يبقى منه شيء، مثل سائر الدعوات والمذاهب الباطلة، فمن ظنّ هذا الظنّ فقد ظنّ بربّه ظن السوء وظنّ الجاهلية، وأنكر بهذا الظنّ الحكمة التي أرادها الله وأنكر قدر الله الذي قدّره لحكمة عظيمة وهذا ينافي التوحيد، والواجب على المسلم أن يُحسن الظن بربه عز وجل ويحمده على مصابه خيراً أو سوءاً، فالمؤمن عنده العلم بالله وبأسمائه وصفاته فيعلم أنه الحكيم فيحمده على السرّاء والضرّاء، والمؤمن أمره كله خير إن أصابته سرّاء شكَر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر – لعلمه بحكمة الله – فكان خيراً له، ولكن يجب على الإنسان أن لا يزكّي نفسه أبداً، يقول الله جل وعلا {**فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ**}، بل يتهم نفسه بالتقصير في حق الله تعالى، لذلك قال ابن القيّم رحمه الله: "فتش نفسك هل أنت سالم؟" يعني من هذا

التعنُّت والمَلامة على القدَر والاعتراض على الله سبحانه وتعالى في الحوادث.

والحاصل أن حُسن الظن بالله عز وجل من واجبات التوحيد، وسوء الظن بالله سبحانه وتعالى ينافي التوحيد.

والواجب على المسلم إثبات الحكمة في أفعال الله سبحانه وتعالى وأن الله لا يفعل شيئاً عبَثاً، وأن وعد الله يتحقق ولا بد، وهو وعدٌ بأن هذا الدين سيظهر، وقد صدق الله وعده، وظهر هذا الدين في مشارق الأرض ومغاربها.

والحمد لله رب العالمين

الباب الستون
باب ما جاء في منكري القدَر

وقال ابن عمر: "والذي نفسُ ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبِلَه الله منه، حتى يؤمن بالقدَر"، ثم استدل بقول النبي ﷺ: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدَر خيره وشره" (رواه مسلم).

وعن عبادة بن الصامت، أنه قال لابنه: "يا بُني، إنك لن تجد طعم الإيمان، حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصبك".

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب!، فقال: ربِّ ماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيٍ حتى تقوم الساعة"، يا بُنيّ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "من مات على غير هذا فليس مني".

في رواية لأحمد: "إنّ أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب! فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة".

وفي رواية لابن وهب، قال رسول الله ﷺ: "فمن لم يؤمن بالقدَر خيره وشره، أحرقه الله بالنار".

وفي "المسند" و "السنن" عن ابن الديلمي، قال: أتيتُ أُبيّ بن كعب، فقلت: في نفسي شيءٌ من القدَر، فحدثني بشيءٍ لعل الله يُذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحدٍ ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدَر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متّ على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيتُ عبد الله بن مسعود، وحُذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم (حديث صحيح، رواه الحاكم في صحيحه).

الشرح:

كل ما يقع في هذا الكون فهو داخلٌ في علم الله سبحانه وتعالى الأزليّ وهو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض {**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا**}.

فلما سُئل ابن عمر رضي الله عنهما عمّن ينكر القدر أجاب عن ذلك بهذا الجواب، ففي آخر عهد الصحابة ظهر رجلٌ بالبصرة يُقال له: معبد الجُهَنيّ ينكر القدَر، والقدَر من أركان الإيمان مَن أنكره كفر ودخل النار.

والقدريّة الذين ينكرون القدَر فهم قسميْن والعياذ بالله:

القسم الأول:

القدماء منهم، ويسمّون (غلاة القدريّة) فإنهم ينكرون علم الله ويقولون: "إن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها، إنما يعلمها إذا وقعت وحصلت"، فينكرون علم الله القديم الأزلي بالأشياء قبل كونها، وهؤلاء يكونون قد كفروا وخرجوا من الملة بهذا الاعتقاد.

القسم الثاني:

هم الذين يقرّون علم الله الأزليّ لكن يقولون: إنّ الله لم يقدّر هذه الأشياء وإنما الناس هم الذين يفعلونها ويستقلّون بإيجادها وخلقها، كلّ يخلق فعل نفسه، وهؤلاء أخفّ من الأوّلين ولكنهم ضلاّل، لأنهم أنكروا خلق الله، وهم متأخرو القدريّة، ولذلك سمّوا (مجوس هذه الأمة) لأن المجوس يقولون: "إنّ الكون له خالقان: خالق الخير وخالق الشر".

ولا يجوز للمسلم أن يدخل في تفاصيل القدَر ويفتح على نفسه باب الشكوك والأوهام، بل يكفيه أن يؤمن بالقدَر كما أخبر الله سبحانه وتعالى وكما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أنّ كل شيء بقضاء الله وقدَره، ولا يدخل في التفاصيل والأسئلة: لماذا كذا ولماذا كذا، لأنه لن يصل إلى نتيجة، لأن الأمر كما يقول عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما -: "القدَر سرّ الله"، سرٌ لا

يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، فالواجب علينا: أن نؤمن بالقدَر، ولا ندخل في تفاصيله، بل نكتفي بالإيمان به على ما جاء في الدليل من كتاب الله وسنة رسوله .

وعلينا العمل بطاعة الله وامتثال أمره واجتناب نهيه، هذا الذي كلّفنا به، ولم نكلّف بالبحث عن القدَر، ولا نترك العمل ونقول: ما قُدّر لنا فسيحصل.

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي، قال: أتيتُ أبيّ بن كعب، فقلت: "في نفسي شيءٌ من القدَر"، هكذا طلبة العلم الذين يبحثون عن الحقيقة ويبحثون عن العِلم النافع، إذا أشكل عليهم شيء، ولا يعتمدون على رأيهم، وإنّما يرجعون إلى أهل العِلم، فرجع ابن الديلمي إلى الصحابة رضي الله عنهم لما أشكل عليه أمرُ القدَر فقال بعد ذلك: "حدّثني بشيء" يعني: أخبرني بشيءٍ عن رسول الله ، لأن أبيّ بن كعب من خواصّ صحابة الرسول .

وقول ابن الديلمي: "لعل الله أن يُذهبه من قلبي" هذا دليلٌ على أن الإشكال يزول بالعِلم، وعلى أنّ الوساوس تزول بالعِلم النافع وأنه لا شفاء لها إلا بالعِلم، والعلم يُطلب عند أهله، لا يطلُب من المتعالمين والمبتدئين والصحافيين الذين يعتمدون على قراءة الكتب، هؤلاء قرّاء وليسوا علماء، وما يخطئون فيه أكثر مما يصيبون، فلا بد من الرجوع إلى أهل العِلم الراسخين فيه.

فماذا كان جواب أبيّ بن كعب رضي الله عنهما؟ قال: "لو أنفقتَ مثل أُحُد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدَر"؛ لأن العمل وإن كان جليلاً فإنه لا يُقبل إلا إذا صحّت العقيدة، ومن صحة العقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، لأنه من أركان العقيدة ثم قال أبيّ: "وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك" الله أكبر! تطابقت كلمة أبي بن كعب مع كلمة ابن عمرو مع كلمة عبادة بن الصامت – رضي الله عنهم جميعاً – لأنهم

يأخذون من مصدرٍ واحد، وهو سنّة رسول الله ﷺ ولا يقولون شيئاً من عند أنفسهم.

يقول ابن الديلمي: "فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ".

والحمد لله رب العالمين

الباب الواحد والستون
باب ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: "قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرّه أو ليخلقوا حبّه، أو ليخلقوا شعيرة" (أخرجاه).

ولهما عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: "أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله".

ولهما، عن ابن عباس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "كل مصوّرٍ في النار، يجعل له بكل صورة صوّرها نفس يعذّب بها في جهنم".

ولهما عنه مرفوعاً: "من صوّر صورةً في الدنيا كُلّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ"، ولمسلم عن أبي الهيّاج، قال، قال لي علي: "ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سوّيته".

الشرح:

هذا الباب عقده المصنف رحمه الله في كتاب التوحيد لأن التصوير سبب من أسباب الشرك، ووسيلة إلى الشرك الذي هو ضد التوحيد، كما حدث لقوم نوح لمّا صوروا صور الصالحين ونصبوها في مجالسهم وآل بهم الأمر إلى أن عبدوهم من دون الله، فأول شرك حصل في الأرض كان بسبب الصور والتصوير.

وكذلك قوم إبراهيم الذين بُعث إليهم الخليل عليه الصلاة والسلام كانوا يعبدون التماثيل التي هي صور مجسّمة لذوات الأرواح، ولذلك بنو إسرائيل عبدوا التمثال الذي هو على صورة العجل الذي صنعه لهم السامريّ، فدلّ هذا على أن التصوير سبباً لحدوث الشرك ووسيلة إلى الشرك، وذلك أنه إذا صنعت الصورة وعلّقت أو نصبت وهي صورة للزعماء والصالحين والعلماء فإنها في النهاية تُعظّم، ثم يأتي الشيطان الناس ويقول لهم: "إن

هذه الصور فيها نفعٌ لكم، وفيها دفعُ ضرر، فيعظّمونها ويتبرّكون بها، ويذبحون لها وينذرون لها، حتى تصبح أوثاناً تُعبد من دون الله".

لذلك عقد المصنف رحمه الله هذا الباب في هذا الكتاب – كتاب التوحيد – وهو كتاب يبين التوحيد ويبين الشرك ووسائل الشرك، ومن أعظم وسائل الشرك نصب الصور وتعليقها.

الباب الثاني والستون
باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى: {**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**} [المائدة: 89].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "سمعتُ رسول الله يقول: "الحَلْفُ منفقةٌ للسلعة، ممحقةٌ للكسب" (أخرجاه).

وعن سلمان، أن رسول الله قال: "ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكّيهم ولهم عذابٌ أليم: أشيمط زانٍ، وعائلٌ مستكبر، ورجلٌ جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه" (رواه الطبراني بسندٍ صحيح).

وفي الصحيح، عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله : "خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وقال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً، ثم إنّ بعدكم قومٌ يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يُؤتمنون ويُنذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن".

وفيه – يعني الصحيح – عن ابن مسعود: أنّ النبيّ قال: خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته"، قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار.

الشرح:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن الاستهانة بالحلف تُنقّص التوحيد، كما أن تعظيم الحلف بالله من كمال التوحيد.

قوله: "باب ما جاء": يعني من الوعيد في حق من كثر حلفه والحلف هو: تأكيد شيءٍ بذكر معظّم بأحد حروف القسم وهي، الواو والباء والتاء، وكثرة الحلف معناها الإكثار من الأيْمان في كل مناسبة، وقد يكون في

غير داعٍ لليمين إلا التغرير بالناس وخداع الناس كحالة المنافقين الذين قال الله فيهم: {**وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**}، وكلما قل الإيمان أو عدم الإيمان في القلب حصل التهاون باليمين والحلف.

قال: وقول الله تعالى: {**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**}، لما ذكر الله سبحانه وتعالى كفارة اليمين في سورة المائدة في قوله تعالى: {**لا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**} [المائدة:89]، جعل في اليمين الكفّارة، إذا حنث فيها وخالفها مما يدل على عظمتها، لأن الكفارة لا تكون إلا من ذنبٍ وقع الإنسان فيه فنقضُ اليمين يحتاج إلى كفّارة مما يدل على عِظم اليمين.

فمعنى واحفظوا أيمانكم أي لا تحلفوا، نهيٌ عن الحلف، فلا يحلف الإنسان إلا إذا دعت الحاجة، ويكون صادقاً في يمينه، كما قال ﷺ: "من حلف بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرضى، ومن لم يرضَ فليس من الله". والقول الثاني في معنى قوله تعالى: {**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**}، أي احفظوها بالكفارة إذا حنثتم أي كفّروا عنها فالكفّارة حفظٌ لليمين واحترامٌ لها.

والحلف كما في حديث أبي هريرة منفقة للسلعة أي سبب لنفاقها ولكنه ممحقةٌ للكسب أي يزيل الكسب إما معنوياً أو مادياً معنوياً بإزالة البركة منه أو مادياً بأن يُتلف أصل المال.

ومعنى أشيمط في حديث سلمان تصغير أشمط وهو الذي بدأه الشيب والتصغير تحقيراً له، ومحل الشاهد في حديث سلمان رضي الله عنه "ورجلٌ جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه" فهو يكثر الحلف

بالله تهاوناً، فكان جزاؤه هذه العقوبات الثلاث: لا يكلّمه الله، ولا يزكّيه، وله عذابٌ أليم – والعياذ بالله -.

والواجب على المسلم أن يصدق في معاملته مع الناس في بيعه وشرائه، والدنيا مهما حصّل منها فإنها لا تغنيه عن الآخرة، والكسب الحلال وإن كان يسيراً فإن فيه البركة وفيه الخير، والكسب الحرام وإن كان كثيراً فهو ممحوقٌ لا خير فيه ولا بركة.

فالواجب تعظيم اليمين بالله عز وجل، لأن تعظيمها كمالٌ في توحيد العبد لله، والواجب عدم كثرة الحلف لأن من كثر حلفه كثر كذبه، وكثرة الحلف تدلّ على التهاون باليمين، ومن تهاون باليمين نقص توحيده.

وفي حديث ابن مسعود:

"ثم يجيء قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته"، يعني ثم يجيء أناسٌ بعد القرون الثلاث الأولى بعد النبي ﷺ، هؤلاء الناس لا يُبالون بالشهادة، ولا يُبالون بالأيمان، بل يُسابقون إليها، ويسارعون إليها بدون تحفّظ، وبدون خوف من الله عز وجل، يحلفون ويشهدون بكثرة. فهذا فيه: ذمّ كثرة الشهادة، وذمّ كثرة الأَيْمان، فيكون مطابقاً لما ترجم له المؤلف – رحمه الله – لأن الرسول ﷺ ساقه مساق الذمّ، ففيه: النهي عن كثرة الشهادة، وكثرة الحَلْف، لأنّ في ذلك استخفافاً بهما، فيكون مُنقِّصاً للتوحيد.

الباب الثالث والستون
باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله

وقوله تعالى: {**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**} [النحل: 91].

وعن بُريدة، قال: "كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سريّة، أوصاه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، فقال: "اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا، ولا تُمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوّك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال – أو خلال – فأيّتهن ما أجابوك، فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحوّلوا منها فأخبرهم: أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا، فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم وكفّ عنهم، فإن هم أبوا، فاستعن بالله، وقاتلهم، وإذا حاصرتَ أهل حصنٍ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تُنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري: أتصيب فيهم حُكم الله أم لا؟" (رواه مسلم).

الشرح:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنّ نقض العهود فيه نقصٌ في التوحيد، لأنه يدل على احترام عهد الله، ومن لم يحترم عهد الله؛ فإن هذا يدل على نقص في

توحيده، ومن وفّى بعهد الله وعظّم عهد الله فهذا يدل على كمال توحيده، هذا وجه المناسبة.

والذمة معناها: العهد. وقوله باب ما جاء يعني: من النهي عن نقض العهود من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما جاء من الوعيد في ذلك.

قال: وقول الله تعالى: {**وَأَوْفُوا**}، هذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود. والوفاء: ضد الغدر والخيانة. {**بِعَهْدِ اللَّهِ**} المراد به: الميثاق الذي يُعقد بين الناس، وأضافه إلى نفسه إضافة تشريف؛ مما يدل على تعظيم العهد، لذلك وجب احترامه وعدم نقضه، فإن نقض العهود من صفات المنافقين، والوفاء بالعهود من صفات المؤمنين، قال النبي ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر".

الباب الرابع والستون
باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله، قال، قال رسول الله ﷺ: "قال رجلٌ والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: مَن ذا الذي يتألّى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرتُ له، وأحبطت عملك" (رواه مسلم).

وفي حديث أبي هريرة أنّ القائل رجلٌ عابد، قال أبو هريرة: "تكلّم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته".

الشرح:

الإقسام على الله هو: الحلف على الله، فإن كان هذا الحلف بأنه لا يرحم عباده ولا يغفر لهم ولا يُدخل أحداً منهم الجنة فهذا مُحرّم، وهو سوء أدب مع الله عز وجل، لأن معناه: الحجر على الله تعالى، ولا أحد يمنع الله من أن يتصرف في خلقه، وأن يرحم من شاء ويعذّب من شاء، ويغفر لمن شاء!.

فالذي يفعل هذا قد أساء الأدب مع الله، وتنقص الله سبحانه وتعالى، وهذا يُعدّ مُخلاًّ بالتوحيد، لذلك عقد المصنف رحمه الله هذا الباب.

وقد يكون الإقسام على الله على وجه حسن الظن بالله أن يفعل الخير، وأن يغفر لعباده وأن يسقيهم المطر وأن ينصرهم على الأعداء، فهذا النوع من الإقسام على الله لا بأس به لأنه حسنُ ظنٍّ بالله، وقد جاء في الحديث: "إنّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه".

وقال النبي ﷺ: "ربّ أشعث أغبر ذي طمرين، مدفوعٌ بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرّه".

ومعنى من ذا الذي يتألّى عليّ في الحديث: من الذي يحلف عليّ. والواجب على المسلم أن يحفظ لسانه وأن يُحسن الظن بالله، فربّ كلمةٍ لا يدري خطرها توبق دنياه وأخراه والعياذ بالله.

الباب الخامس والستون
باب لا يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه

عن جُبير بن مطعم رضي الله عنه، قال: "جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نُهِكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكَت الأموال، فاستسقِ لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي ﷺ: سبحان الله، سبحان الله!" فما زال يسبّح حتى عُرِف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: "ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه" وذكر الحديث، (رواه أبو داود)[23].

الشرح:

الاستشفاع: طلب الشفاعة، **والشفاعة:** هي الوساطة في قضاء الحوائج عند من هي بيده. والشفاعة بحسب المشفوع فيه فإن كان خيراً، فالشفاعة حسنه وفيها أجر، قال تعالى: {**مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا**} [النساء:85]، وقال ﷺ: "اشفعوا تُؤجروا".

أما إذا كانت الشفاعة في أمر محرّم فإنها محرّمة، قال تعالى: {**وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا**} [النساء: 85]، كالذي يشفع في إسقاط حدٍ من حدود الله كحد الزنا وحد السرقة، وحدّ الشُّرب، فهذه شفاعة محرّمة، قال ﷺ: "وإذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفّع".

هذا في الشفاعة عند المخلوق، أما الاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه فهذا منكر عظيم؛ لأن المشفوع عنده يكون أعظم من الشافع، فإذا استشفع بالله على أحدٍ من خلقه فمعناه: أن هذا المخلوق عنده أعظم من الله، وهذا تنقّص لجناب الله سبحانه وتعالى، وهذا مخلٌّ بالتوحيد.

---

[23] إسناده ضعيف، انظر الضعيفة رقم (2639)، وانظر أيضاً تخريج المشكاة رقم (5727).

وقول النبي : "أتدري ما الله؟" هذا استنكارٌ من النبي وبيان لجهل هذا الأعرابي في حق الله، ثم قال عليه الصلاة والسلام: "شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه" فبعد إنكاره نزّه ربّه وعلّم هذا الجاهل ما يجب عليه من تعظيم الله وتوحيده.

الباب السادس والستون
باب ما جاء في حماية النبي حمى التوحيد وسده طرق الشرك

عن عبد الله بن الشخّير، قال: "انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: "السيد الله تبارك وتعالى، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طَوْلاً، فقال: "قولوا بقولكم، أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان" (رواه أبو داود بسندٍ جديد).

وعن أنس، أن ناساً قالوا: "يا رسول الله يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا فقال: يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمدٌ عبد الله ورسوله، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل"(رواه النسائي بسندٍ جديد).

الشرح:

سبق بابٌ يشبه هذا الباب "الباب الثاني والعشرون، باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد، وسدّه كلّ طريق يوصل إلى الشرك".

فما الفرق بين البابيْن؟ أن المصنف رحمه الله أراد في الباب الذي فيه حماية جناب التوحيد أراد أن يبيّن حماية النبي للتوحيد نفسه من أن يقع فيه شرك.

وهنا في هذا الباب أراد أن يبين أن النبي حمى ما حول التوحيد، بعد حمايته التوحيد، وهذا من باب العناية التامّة بشأن التوحيد.

وطرق الشرك هي الأشياء التي توصّل إلى الشرك والنبي أراد أن يسد هذه الطرق والوسائل الموصلة للشرك وإن لم تكن هي من الشرك، فقد يكون الشيء مباحاً في نفسه ولكن إذا أفضى إلى محرّم يصبح محرّماً، لأنّ الوسائل لها حكم الغايات، فالوسيلة إلى المحرّم تصبح حراماً وهذا يسمّى عند الأصوليين بقاعدة (سد الذرائع).

فقول النبي ﷺ: "السيد الله تبارك وتعالى" أراد ﷺ أن يسدّ باب الغلوّ في حقه عليه الصلاة والسلام.

والسيد معناه: المالك، والله هو المالك المطلق الذي له التصرف كما يشاء سبحانه وتعالى.

وكذلك لما قال الصحابة: "قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ" قالوا ذلك لما آذاهم منافقٌ من المنافقين، قال النبي ﷺ: "إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله"، فأراد ﷺ أن يسدّ هذا الباب مع أن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه جائزة، كما قال الله تعالى في قصة موسى: {**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ**} [القصص: 15]. والنبي ﷺ قادر على أن يردع هذا المنافق ولكنه أراد أن يعلّم الأمة الآداب ويُبعدها عن الغلوّ.

وأرشدهم النبي ﷺ أن يقولوا بقولهم بأن يقال له: يا رسول الله، يا نبيّ الله وليس في ذلك غلوّ.

ففي الحديث قال ﷺ: "أنا محمدٌ عبد الله ورسوله" وهذا مدحٌ للنبي ﷺ بدون غلوّ. فعبد الله: فيه منعٌ من الغلو. ورسوله: فيه المنع من تنقّص حقه ﷺ، ففيه منعٌ من الإفراط والتفريط.

ومن لم يفهم ذلك يقع في الغلوّ كما وقع فيه كثيرٌ من المخرّفين اليوم فمدحوا النبي صلى الله عليه وسلم بمدائح حتى رفعوه فوق منزلته التي أنزله الله عز وجل، كما قال البوصيري في البرده:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ... سواكَ عند حلول الحادث العمَم

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي ... فضلاً وإلاّ قل يا زلة القدم

فإنّ من جودك الدنيا وضرّتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

والعياذ بالله هذا غلوٌّ أفضى إلى الكفر والشرك، نسأل الله العافية، لكن قد يقول قائل جاءت أحاديث فيها إطلاق السيد على النبي ﷺ وعلى غيره، فمثلاً صحّ عن

النبي ﷺ أنه قال: "أنا سيّد ولد آدم ولا فخر"، وقال في الحسن بن علي – رضي الله عنه -: "إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين طائفتيْن عظيمتيْن من المسلمين". وقال: "الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة" ولما جيء بمعاذٍ بن جبل – رضي الله عنه – عام الخندق، قال ﷺ للأنصار: "قوموا إلى سيّدكم"، فما الجواب على ذلك؟

للعلماء ثلاثة أقوال:

الأول: أن المنهي عنه إطلاق لفظ "السيد" وأجابوا عن الأحاديث المخالفة بأنها أحاديث متقدّمة وحديث "السيد الله" متأخر، فيكون ناسخاً لها.

الثاني: جواز إطلاق السيد على المخلوق، وأجابوا عن حديث المنع بأنه محمولٌ على كراهة التنزيه، فيكون النهي للتنزيه.

الثالث: الجواز مطلقاً بلا كراهة، إلا إذا خيف من الغلوّ، فإن النبي ﷺ خاف عليهم من الغلوّ.

وهناك قولٌ رابع ألْمَحَ إليه الشارح وهو: أنّه لا يجوز إطلاق السيد على الشخص في حضوره ومواجهته، ويجوز إطلاقه عليه وهو غائب، لأن النبيّ ﷺ إنما استنكر هذا لمّا واجهوه به ﷺ فيُمنع مواجهة الإنسان بقول: (أنتَ السيد)، (أنتَ سيدنا) أو ما أشبه ذلك خوفاً عليه من الإعجاب بنفسه، كما نهى النبي ﷺ عن مدح الإنسان حال حضوره، وفي ذلك حماية حِمى التوحيد وسدّ الطرق التي تُفضي إلى الشّرك.

الباب السابع والستون
باب
ما جاء في قـول الله تعـالى: {وَمَا قَـدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعـاً قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمر:67].

عن ابن مسعود قال: جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ، فقال: "يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات، على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول أنا الملك، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بانت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: {**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**} (متفق عليه).

وفي رواية مسلم: "والجبال والشجر على إصبع ثم يهزّهن، فيقول: أنا الملك، أنا الله". وفي رواية للبخاري: يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع.

ولمسلم، عن ابن عمر مرفوعاً: "يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهنّ بيده اليُمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهنّ بشماله، فيقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟".

ورُوي عن ابن عباس، قال: "ما السموات السبع والأرضون السبع في كفّ الرحمن إلا كخَرْدلة في يد أحدكم".

وقال ابن جرير: حدثني نواس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله : "ما السموات السبع في الكرسي، إلا كدراهم سبعة أُلقيت في ترس".

قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: "سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهريْ فلاة من الأرض".

وعن ابن مسعود، قال: بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم، وأخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة عن عاصم، عن ذر، عن عبد الله، ورواه بنحوه المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله، قاله الحافظ الذهبي – رحمه الله – قال: "وله طُرُق".

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: بينهما خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكِثَف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش البحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيءٌ من أعمال بني آدم" (أخرجه أبو داود وغيره)[24].

الشرح:

هذا الباب ختم به المؤلف – رحمه الله – أبواب "كتاب التوحيد" لأنه يشتمل على الأسماء والصفات؛ لأن "كتاب التوحيد" كله يدور على توحيد الألوهية، ومكملاته ومنقصاته، ومناقضاته، وفي هذا الباب ذكر الأسماء والصفات من أجل أن يتكامل هذا الكتاب فيحتوي على جميع أنواع التوحيد، وتوحيد الأسماء والصفات خالف فيه كثير من الفرق الضالة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة لذلك فصل المؤلف – رحمه الله – هذا الباب لبيان مخالفة هذه الفرق الذين عطّلوا أسماء الله وصفاته

---

24 ضعيف، انظر ضعيف الجامع رقم (6039).

وألحدوا فيها والله يقول: {**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**} [الأعراف: 180]، فالله أثبت لنفسه الأسماء وأثبت له الصفات، وأثبت لنفسه السمع والبصر والقدرة والحياة والعلم والوجه، واليدَيْن، فمن نفى ذلك عن الله فقد ألحد في أسماء الله، ومذهب أهل السنة والجماعة في ذلك: أنهم يثبتون ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، وما أثبته له رسوله ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل، فأهل السنة والجماعة يقولون: "إن الله تعالى له حياة وليست مثل حياتنا، له علم وليس مثل علمنا، وله وجه وليس مثل وجوهنا، وله يدٌ وليست مثل أيدينا. وهكذا جميع الصفات؛ يقولون: إن الله تعالى لا يماثل خلقه فيما وصف به نفسه أبداً لقوله تعالى: {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**} [الشورى: 11].

فمن خالف أهل السنة والجماعة في هذه العقيدة فألحد وجحد الأسماء والصفات، فهذا ما قدر الله حقّ قدره لذلك قال المؤلف رحمه الله.

باب ما جاء في قول الله تعالى: {**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**} يعني ما جاء عن النبي وعن السلف الصالح في تفسير هذه الآية، وبيان عظمة الله جل وعلا وأنّ هذا الكون بسمائه وأرضه وجباله وشجره ومائه وثرائه وجميع المخلوقات يجعلها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة على أصابعه ويجمعها في كفّيْه سبحانه وتعالى، كما صحَّت بذلك الأدلة، فقوله تعالى: {**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**} يشمل كل من تنقّص الله تعالى في أيٍ من صفاته أو أسمائه فيكون ما قدر الله حقّ قدره ويدخل في ذلك من الطوائف الضالة:

- الدهريّة: وهم طائفة جاحدة معطّلة ينفون وجود الله تعالى الذين يقولون: {**مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**}، وقد ردّ الله عليهم بقوله: {**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**}.

- كذلك المشركون: الذين أقرّوا أن الخالق الرازق المحيي المميت المدبّر هو الله سبحانه وتعالى ولكنهم عبدوا غيره من المخلوقات من الأصنام والقبور والأشجار.

- كذلك الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية: هؤلاء الذين ألحدوا في أسماء الله وصفاته أو جحدوا بعضها فهؤلاء ما قدروا الله حقّ قدره ولا عظّموه حقّ تعظيمه.

- كذلك القدريّة: الذين نفوا القدَر وقالوا: "إن الأشياء توجد بدون قدَر الله وأنه أُنف، يعني: تحدث بغير قدر الله، وإنما العبد هو الذي يخلق فعل نفسه دون أن يكون لله قدرٌ سابق، وعلمٌ سابق بهذه الأشياء".

- كذلك كل من عصى الله وارتكب ما حرّم الله من المعاصي وترك ما أوجب عليه من الطاعات فهذا أيضاً ما قدر الله حقّ قدره.

- كذلك مَن حكم بغير ما أنزل الله، وجعل القوانين الوضعية بديلاً عن الأحكام التي شرعها الله سبحانه وتعالى فهذا ما قدر الله حقّ قدره والحاصل أن هذا الباب بابٌ واسع وأن قوله تعالى: **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** يشمل كل من خالف في أمور العقائد وأمور الأحكام فإنه ما قدر الله حق قدره، وفي الحديث السابق عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم". الحديث وما قبله من الأحاديث في هذا الباب تحمل المعنى نفسه دلّت جميعها على سعة هذا الكون الكبير وعلوّ الله سبحانه وتعالى على خلقه، وقد أجمع أهل السنة والجماعة على علوّ الله سبحانه وتعالى بذاته على خلقه، ولهذا قال: "والله فوق العرش" فالله جلّ وعلا هو العليّ الأعلى فوق مخلوقاته، وأن المخلوقات كلها بالنسبة إلى كف الرحمن سبحانه كالخردلة في يد أحدنا كما سبق فيما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقوله: "لا يخفى عليه شيءٌ من

أعمالكم"، أي مع علوِّه على خلقه هو قريبٌ من عباده لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم فهو سبحانه كما قال:
{**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**} [الحديد: 4].

مَعَكُمْ أي: بعلمه سبحانه وتعالى وإحاطته، لا تخفون عليه، ولا تخفى عليه أعمالكم خيرها وشرّها. لذلك كله يجب إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، لأنه إذا كانت هذه المخلوقات العظيمة هي حقيرة بالنسبة لخالقها العظيم سبحانه وتعالى وأنه يتصرف فيها جلّ وعلا بقدرته وحكمته ويعلم ما يجري فيها وما يكون فيها، فهو المستحق للعبادة وبُطلان عبادة ما سواه، وهذا هو التوحيد.

والحمد لله رب العالمين
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الفهرس